الداعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (القرآن الحكيم)

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١١ ، السنـــــة : ٥٠

ذوالقعدة ١٤٤٧هـ ، أبريل – مايو ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- همسة في أذن الشباب المسلم — التحرير — ٣

كلمة العدد

- لا ضرر ولا ضرار — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩
- متى يستجاب للدعاء؟ — الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد — ١٥

دراسات إسلامية

- الدين ضرورة اجتماعية — الأستاذ السيد محمد أبو المجد — ٢١
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٦
- مضار الإسراف — الشيخ محمد الخضر حسين — ٣٥
- أبعاد هدي القرآن — الدكتور إبراهيم بن حسن بن سالم — ٤٠
- اللذة مع الحكمة — الشيخ محمد الطاهر بن عاشور — ٤٧
- العلامة الطبيب علي بن حزم القَرْشي — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٥١

إشراقة

- خَالِفْ تُذْكَر — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

همسة في أذن الشباب المسلم

أيها الشباب المسلم، أنت عدة المستقبل ومادته، وأنت أمل الأمة، وبصلاحك يصلح المجتمع البشري، وتسعد الأجيال القادمة. وما من أمة فسدت أخلاق شبابها إلا تزعزت أركانها، وانهار كيانها، وتحطم بنيانها، وذهبت ريحها، واستنسر عليها البغاث.

أيها الشباب المسلم، أنت تمر بمرحلة من مراحل العمر الغالي الذي لايقدر بثمن، وأنت تعيش اليوم وضعًا عز فيه الحق، وانتشر الفجور والجهل بالدين لحد يرثى له، وتنوعت فيه طرق الغواية والضلال، و«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين: أبيض بمثل الصفا فلاتضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لايعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه».

أيها الشباب المكب على مواقع التواصل الاجتماعي، والمتهافت عليها أشد من تهافت الفراش على النار، والساقط عليها سقوط الذباب على الشراب: مواقع هابطة خليعة هل تقودك إلى الحق وإلى الصواب وإلى الفضيلة؟ هل تريد أنت تعلمك الأخلاق الكريمة والقويمة والآداب الحميدة؟ وهل تسوقك إلى الصيانة والاستقامة على الدين والمحافظة عليه؟ أبدًا، إن أكبر همها وأولها وآخرها هو: دفعك إلى مهاوي الاستهتار والميوعة والخلاعة، والمجنون؛ إنها دعاة على أبواب النار، من خلال جميع هذه الثغرات والمنافذ والمسالك، وقنوات الشر والفساد.

أيها الشباب المسلم، إن الشيطان ينصب لك شراكه، ويجلب عليك بخيله ورجله، ويلاحقك في كل مكان، و يزين لك كل ما يخدش حياءك، ويقتل مروءتك، ويدنس عرضك، ويهتكه، وينهشه، ويمزقه إربًا إربًا، ويزعزع عقيدتك، ليهوي بك في مستنقعات الرذيلة، والأوحال النتنة من الجريمة وفي حضيض البوار والدمار، باسم الحب والجمال والتحرر والزينة والفن وغيرها مما يستفز النفوس الأمارة بالسوء، و يستثير العواطف الغريزية، ويهيج القوى البهيمية.

فأيها الشاب المسلم، الله الله، لاتكن لقمةً سائغةً، ومطيةً ذلولا لمثل هذه النداءات وبريقها المزور، وقناعها المكذوب. واحذرْ أن تغرّك هذه الألقاب الجوفاء، والأسماء اللامعة والصيت المصطنع المزعوم، التي يروج لها الأقلام الخبيثة الماكرة أو المستأجرة الجشعة؛ فإنك لا تجني من الشوك العنب؟

واعلم أيها الشباب المسلم -وفقك الله تعالى- أنك لابد أن تسأل عن شبابك فيما أبليت يوم ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، فارجع إلى نفسك، وعُدْ إلى رشدك، قبل أن تبكي وتندم ولات حين مندم، على ما انقضى من عمرك الغالي؛ وتفيأ بظلال القرآن الكريم والحديث النبوي والقدوات الصالحة؛ فإنه هو الذي يشكل لك طوق النجاة، وحزام الأمن من التفكك والانحلال، والتحزب والتشرذم، والخلاف والفرقة، وعليه المعول في التمكين لك وللإسلام في بقاع الأرض. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الرابعة مساء من يوم الثلاثاء: ١٤٤٧/٨/٢٩ = ٢٠٢٦/٢/١٧م)

لا ضرر ولا ضرار

من أهم المبادئ الأساسية لطبيعة الإسلام والمنهج النبوي: لا ضرر ولا ضرار، فالإسلام من طبيعته البناء لا الهدم، وإيصال النفع لا إلحاق الضرر بأحد. وهذا المبدأ واضح وضوح الشمس في رائعة النهار في الأحكام والتوجيهات الإسلامية، ويغطي جميع نواحي الحياة من معاملات وأخلاق وعبادات وعلاقات اجتماعية. ويرمي إلى الحفاظ على مصالح الأفراد و المجتمع على حد سواء. ويؤكد أن الإسلام يؤصِّل قيمةَ الرحمة والتيسير، وعدم تكليف بشرٍ بما يفوق طاقته و وسعه، يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، و ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، ويقول: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦].

ففي المعاملات التجارية نهى عن كل ما يجلب الضرر على البائع أو المشتري. فحرَّم التطفيف في الكيل والوزن؛ لأن الغش فيهما يلحق الضرر بالمشتري، ونزلت سورة تسمى سورة المطففين، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:١-٦].

قال ابن عطية في تفسير الآية: «وأمر الكيل والوزن وكيد جدًا، وتصرفه في المدن ضروري في الأموال التي هي حرام بغير حق والفساد فيه كبير لا تنفع فيما وقع منه التوبة، ولا يخلص إلا رد المظلمة إلى صاحبها، وقال مالك بن دينار: احتضر جار لي فجعل يقول: جبلان من نار، فقلت له: ما هذا؟ فقال لي: يا أخي، كان لي مكيالان، آخذ بالوافي وأعطي بالناقص، وقال عكرمة: أشهد على كل كيال أو وزان أنه في النار، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المروءة ممن مروءته في رؤوس المكاييل وألسنة

الموازين».

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: «وهو من عمل المتصدين للتجر يغتنمون حاجة الناس إلى الابتياع منهم وإلى البيع لهم؛ لأن التجار هم أصحاب رؤوس الأموال، وبيدهم المكاييل و الموازين، وكان أهل مكة تجارًا، وكان في يثرب تجار أيضًا، وفيهم اليهود مثل أبي رافع، وكعب بن الأشرف تاجري أهل الحجاز، وكانت تجارتهم في التمر و الحبوب. وكان أهل مكة يتعاملون بالوزن؛ لأنهم يتجرون في أصناف السلع، ويزنون الذهب والفضة، وأهل يثرب يتعاملون بالكيل. و الآية تؤذن بأن التطفيف كان متفشيًا في المدينة في أول مدة الهجرة، واختلاط المسلمين بالمنافقين يسبب ذلك. واجتمعت كلمة المفسرين على أن أهل يثرب كانوا من أخبث الناس كيلًا، فقال جماعة من المفسرين: إن هذه الآية نزلت فيهم، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. رواه ابن ماجه عن ابن عباس. وكان ممن اشتهر بالتطفيف في المدينة رجل يكنى أبا جهينة واسمه عمرو، كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر».

ونهى عن إخفاء عيوب السلعة، فروى مسلم في صحيحه [برقم:١٥٣٢] عن حكيم بن حزام، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محق بركة بيعهما».

قال ابن حجر في شرح الحديث (فتح الباري٤/٣١١): «وقوله: «صدقا» أي من جانب البائع في السوم، ومن جانب المشتري في الوفاء. وقوله: «وبينا» أي لما في الثمن و المثمن من عيب، فهو من جانبيهما، وكذا نقصه. وفي الحديث حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط، وهو الصدق والتبيين، ومحقها إن وجد ضدهما، وهو الكذب والكتم. وهل تحصل البركة لأحدهما إذا وجد منه المشروط دون الآخر؟ ظاهر الحديث يقتضيه. ويحتمل أن يعود شؤم أحدهما على الآخر بأن تنزع البركة من المبيع إذا وجد الكذب أو الكتم من كل واحد منهما، وإن كان الأجر ثابتًا للصادق المبين، والوزر حاصل للكاذب الكاتم. وفي الحديث أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح وأن شؤم المعاصي يذهب بخير الدنيا والآخرة.

وروى مسلم [برقم:١٠٢] عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني».

قال محمد علي بن محمد البكري (ت:١٠٥٧هـ) في (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٨/٤٢٣): «(أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه

الناس) فتسلم من الغش الذي هو أقبح الأوصاف، القاطعة لرحم الإسلام، الموجبة لكون المسلم للمسلم، كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومن قطع رحم الإسلام خشي عليه الخروج من عدادهم، كما ينشأ عن ذلك ما هو مقرر في شرعنا (من غشنا فليس منا)، المراد بالغش هنا، كتم عيب المبيع أو الثمن، والمراد بعيبه هنا: كل وصف يعلم من حال آخذه، أنه لو اطلع عليه لم يأخذه بذلك الثمن، الذي يريد بدله فيه».

فأكد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «من غَشَّ ليس على طريقتنا، وأنّ الغشَّ ليس مِنْ أعمال أهل الإيمان، ولا مِنْ أخلاق أهل الإسلام، ولا مِنْ طريقهم، إنّما هو من طريقة اليهود و غيرهم، وقال ابن عُيَيْنَة: ليس مثلنا».

كان الغش يعد على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أمرًا عظيمًا، وأما اليوم فتجد الغش عند الناس أهون الأشياء وأيسرها؛ بل- والعياذ بالله- يعتبر بعضهم الغش من الشطارة في العقود والبيع والشراء، ويراه من أبواب الذكاء والحذق والدهاء، وحتى يقال للرجل: ما أجلده وما أظرفه وما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من الأمانة؟!

وفي العلاقات الاجتماعية حذر الإسلام تحذيرًا شديدًا من إلحاق الأذى بأحد أيًّا كان، فعلى المسلم أن يحسن إلى جاره، وليس له أن يؤذيه أو يلحق به الأذى، قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

وساق ابن كثير في تفسير هذه الآية عددًا من الأحاديث الواردة في الوصاية بالجار منها:

ما رواه البخاري في صحيحه [برقم:٢٣٢٦] عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

قال القرطبي (شرح الزرقاني على الموطأ ٤/٤٧٨): «فمن كان مع هذا التأكيد الشديد مضرًّا لجاره كاشفًا لعوراته، حريصًا على إنزال البوائق به كان ذلك منه دليلًا على فساد اعتقاد و نفاق، فيكون كافرًا، ولا شك أنه لا يدخل الجنة، وأما على امتهانه بما عظم الله من حرمة الجار، ومن تأكيد عهد الجوار فيكون فاسقًا فسقًا عظيمًا، ومرتكب كبيرة يخاف عليه من الإصرار عليها أن يختم له بالكفر، فإن المعاصي بريد الكفر، فيكون من الصنف الأول، فإن سلم من ذلك و مات بلا توبة، فأمره إلى الله، وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في رعايته وحفظ حقه».

وروى البخاري في صحيحه [برقم:٢٣٢٧]

عـن أبي شريـح أن النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خـرج وهـو يقـول:«والله لايؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن». قيل: «ومن يا رسول الله؟» قال: «من لا يأمن جاره بوائقه».

قـال في «التوضـيح لـشرح الجـامع الـصحيح»: «وهـذا الحـديث شـديد الحـض عـلى تـرك أذى الجـار، ألا ترى أنه - عليه السلام- أكد ذلك بقسمه ثلاث مرات أنه لا يؤمن من لايأمن جاره بوائقه، ومعناه: أنه لا يؤمن الإيمان الكامل، ولا يبلغ أعلى درجاته مـن كـان بهـذِه الـصفة، فينبغي لكـل مـؤمن أن يحـذر أذى جـاره، ويرغـب أن يكـون في أعـلى درجـات الإيمان، وينتهي عما نهاه الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه، وحضَّا العباد عليه».

ولايكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فروى البخاري في صحيحه [برقم:١٠] عن أنـس عـن النبـي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- قـال: «لايـؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

قال في (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢٦/٣): «قال ابن العماد: الأولى أن يحمل على عموم الأخوة حتى يشمل الكافر، فيحبّ لأخيه الكافر ما يحبُّ لنفسه من دخوله في الإسلام كما يحبّ للمسلم دوامـه، ومـن ثـم كـان الـدعاء بالهدايـة مـستحبًا، و (حتى) هنا جارة؛ لأن ما قبلها غير ما بعدها؛ فإنه غايـة لنفـي الكـمال. ثـم ظـاهر الخـبر أن هـذه المحبـة كافية في كماله وإن لم يأت ببقية أركانه، وليس مرادًا؛ بل إنما ورد تحريضًا على التواضع ومحاسن الأخلاق و ترغيبًا في محبة المسلمين بعضهم بعضًا وائتلافهم، ولايخفى أن ذلك يؤدي إلى التعاضد و التناصر، وبه ينتظم شمل الإيمان، وتتأيد شرائعه، كما علم مما مر في الحـديث قبلـه، أو ورد مبالغـة حتـى كـأن تلـك المحبة ركنه الأعظم «كالحج عرفة»؛ إذ هي مستلزمة لبقية أركانه ثم المكلف به مقدمات المحبة مما تقدم لا المحبـة نفـسها، لأنهـا ميـل طبيعـي لا يطـاق تحـت نطاق الاختيار، والتكليف به تكليف بمحال، فالمراد إيثار ما يؤدي للمحبة مما يقتضي العقل اختياره وإن كـان خـلاف هـوى الإنـسان كالـدواء؛ فإنـه يكرهـه المريض طبعًا ويميل إليه اختيارًا بحكم عقله لعلمه بأن صلاحه فيه، والمراد محبة الرحمة والإشفاق».

ومن صور النهي عن إلحاق الضرر المضارة في الوصية، قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ [النساء:١٢]. روى الترمـذي في سـننه [بـرقم:٢١١٧] عَـنْ شَـهْرِ بْـنِ حَوْشَـبٍ عـن أبي هريـرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- أنـه حدثـه عـن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قـال: «إن الرجـل ليعمـل والمـرأة بطاعـة الله سـتين سـنة، ثـم يحـضرهما المـوت، فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار»، ثـم قرأ علي أبو هريرة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [النساء:١٢]. إِلَى

قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩].

وروى النسائي في السنن الكبرى [١١٠٢٦] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «الْإِضْرَارُ فِي الْوَصِيَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ، ثُمَّ تَلَا ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣-١٤].

وروى أبوداود في سننه [برقم:٤٩٤١] عن عبدِ الله بن عمرو، يبلُغ به النبيَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ، ارحَمُوا أهلَ الأرضِ يَرْحَمْكُم مَن في السّماء».

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني، المعروف بالأمير (ت:١١٨٢هـ) في (التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ٦/٢٧٩): ''(الراحمون) أي ذو الرحمة من عباد الله لمن في أرضه من حيوان، آدمي وغيره بالإحسان، وكف الظلم، والتوجع، والسعي في إصلاح حالهم، وهو جمع راحم، قال الجويني في «ينابيع العلوم»: «حكمة إتيانه بالراحمين جمع راحم دون الرحماء جمع رحيم، و إن كان غالب ما ورد من الرحمة استعمال الرحيم لا الراحم؛ لأن الرحيم صيغة مبالغة، فلو عبر بجمعها اقتضى الاقتصار عليه، فأتى بجمع راحم إشارة إلى أن العباد منهم من قلّت رحمته، فيصح وصفه بالراحم، فيدخل في ذلك، ثم أورد على نفسه حديث «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»، فقال: إن ثم جوابًا أحق أن يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، وهو أن لفظ الجلالة دال على العظمة والكبرياء، ولفظ الرحمن دال على كمال العفو بالاستقراء، فحيث أتى بلفظ الجلالة لم يناسب معها إلا ذكر ما هو أكمل في الرحمة انتهى. (يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى) أي يتفضل عليهم بعفوه وغفرانه وبره وإحسانه جزاءً وفاقًا. (ارحموا من في الأرض) عم في الأمر بعد وعد من اتصف بالرحمة برحمته، وعم كل من في الأرض، ولا ينافيه الأمر برجم الزناة والحدود؛ لأنها من الرحمة؛ فإنها من باب إنزال أخف العقوبتين، ودفع أثقلهما. (يرحمكم من في السماء) أي من رحمته عامة لأهل السماء الذين هم أكثر وأعظم من أهل الأرض، أو المراد يرحمكم أهل السماء، كما تشير إليه رواية «أهل السماء»، قال البوني: إن كان لك شوقًا إلى رحمة الله، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك والفقير بمالك، والضعيف بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من الله رحمةً أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خيرٍ دق أو جل، فهو صادر عن صفة الرحمة».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأنفال ٤٢-٥٨)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا)هي ناحية ساحة الحرب القريبة إلى المدينة، و(بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوٰى) هي الناحية البعيدة من المدينة.

فائدة:

انحرفت قافلة أبي سفيان التجارية إلى الأسفل وهي تسير على ضفاف البحر، وبين القافلة و المسلمين جيش قريش.

أي لو أراد الفريقان أن يضربا موعدًا للحرب ثم انطلقا إليها، فعسى أن يختلفا فيه، أو يتردد أحد الفريقين في الوصول على الموعد، فإن المسلمين إذا كانوا في جانب يخافون من عدد الكفار و عدتهم، فإن الكفار في جانب آخر قد أخذهم الرعب بكون المسلمين على الحق، وعبادتهم لله تعالى ومنتهى شجاعتهم. فربما تردد أو تقاعد الفريقان في تولي الحرب أو المشاركة فيها.

فائدة:

أي جاءت قريش لتنصر قافلتها، وجئتم لتهجموا عليها، وتخلصت القافلة، واجتمع الجمعان على ناحيتين من الميدان. ولم يعرف أحدهما صاحبه، وهذا من تدبير الله تعالى. ولو تعمدتم الوصول إليها لم تصلوا على الموعد. وحصحص الحق على الكفار بعد هذا الفتح، فمن مات مات على علمٍ بالحق، ومن عاش عاش على الحق، وذلك لتتم حجة الله تعالى. كذا في موضح القرآن. ويمكن حمل الموت والحياة على الكفر والإيمان. أي فمن يؤمن أو يكفر بعد ذلك يكون إيمانه وكفره بعد وضوح الحق.

فائدة:

أي يجيب الله تعالى استغاثة المظلومين الضعفاء،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ويعلم كيف ينصرهم، ألاترون كيف استجاب لدعاء المسلمين في بدر، وكيف نصرهم؟

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

أي على المسلمين أن يثقوا بعون الله تعالى ونصره، ويجاهدوا، دون الخوف من كثرة عدد الكفار وعدتهم، كما رأوا في بدر؛ فقد نصر الله تعالى المسلمين نصرًا مؤزرًا.

فائدة:

أي لم يقبل أحد إلى حربهم نظرًا لكثرة عددهم، فيختلفوا وينقطع الأمر. ولكن أرى الله تعالى النبي ﷺ في المنام عددَهم قليلا، فوقاهم هذا الجبن والنزاع، فإنه عليم بما يورث القلوب الشجاعة وما يورث الجبن.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

رأى النبي ﷺ الكفار قليلا في المنام، ورآهم المسلمون قليلا عند اللقاء، ليتجرؤوا عليهم. ولم تكن رؤيا النبي ﷺ كاذبة، فإن المستمرين على الكفر منهم كانوا قليلا، ومعظمهم ممن آمنوا فيما بعدُ. ويمكن تأويل الرؤيا بأن المراد بالعدد القليل بيان هزيمتهم. وأما رؤية الكفار المسلمين قليلا، فقد كانوا كذلك في الواقع. وذلك حين التقى الجمعان، فلما شنَّ عليهم المسلمون هجمات شجاعة، ونزل جند الملائكة مددًا، رأى الكفار المسلمين ضعفين. كما في آية أخرى: (وَأُخْرٰى كَافِرَةٌ يَّرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَاْىَ الْعَيْنِ) [آل عمران:١٣].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

يشمل ذلك الصلاةَ والدعاء والتكبير وأنواع ذكر الله تعالى. ومن تأثير الذكر أن قلب الذاكر يقوى و يطمئن، والحاجة إليه في المجاهدة أشد، وهو أعظم ما كان يتسلح به الصحابة رضي الله عنهم (اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَتَطْمَىِٕنُّ قُلُوْبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ اَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَىِٕنُّ الْقُلُوْبُ) [الرعد:٢٨].

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

أي تقل المهابة بعد ذهاب الريح، فكيف تظفرون وتفتحون بعد ذهاب المهابة.

فائدة:

أي اصبروا على ما تلقونه من الشدائد والمشقات بالاستقامة والثبات عند المجاهدة،

ولاتفترْ عزيمتكم. ومن الأمثلة أن الله تعالى حليف الهمم والعزائم. ونبهت هذه الآية على مفتاح الانتصار ما هو؟ فعلم أن النصر والفتح ليس مرده إلى المال والجيش والمجلات وغيرها؛ بل إلى الثبات والصبر والاستقامة وقوة وطمانينة القلب، وذكر الله تعالى، وطاعة الله تعالى ورسوله، ومن يقوم مقامهم من الخلفاء السادة، وتوحيد الكلمة والوفاق. وأجد نفسي بهذه المناسبة مندفعة إلى أن أسوق نصًّا من نصوص ابن كثير رحمه الله النابعة عن أعماق الإخلاص والإيمان في الصحابة رضي الله عنهم: «وقد كان للصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه - ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه-، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش و أصناف السودان والقبط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب».

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾

خرج أبوجهل بالجيش بكل أبهة ومعه القيان، ليهاب المسلمون، وتأخذ هيبتهم قبائل العرب الأخرى، فبلغه وهو في الطريق رسالة أبي سفيان بأن العير قد تخلص من الخطر الشديد، فارجع إلى مكة، فقال أبو جهل بمنتهى الغرور: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، ونعقد مجالس الطرب والنشوة، وتعزف علينا القيان، ونشرب الخمر، وننحر الجزر ثلاثة أيام نقري بها العرب، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا، وتثبط عزيمة هؤلاء الحفنة من المسلمين في المستقبل، فلايتجرؤوا على لقائنا. ولم يدروا أن ما يخططونه ويقترحونه؛ كل ذلك بيد الله تعالى وقبضته، لايدرون هل يدعها تتحقق أم لا؛ بل يقلبها عليهم إن شاء. وفعلًا وقع ذلك. فقد تجرعوا - بدلًا من ماء بدر وكأس الخمر- كأس الموت، و عجزوا عن عقد مجالس الطرب والسرور؛ بل لازمهم النياحة والبكاء من بدر إلى مكة. وما أرادوا إنفاقه فخرًا ورياءً صارت غنيمة ولقمة سائغة للمسلمين. ووضع حجر الزاوية لظهور الإيمان والتوحيد الدائم في ساحة بدر. وكأن الله

تعالى في هذه القطعة الصغيرة من الأرض كتب مقادير الملل و الأمم. فهذه الآية فيها تنبيه للمسلمين على أن المجاهدة ليس عبارة عن مجرد ضجات القتل وسفك الدماء؛ بل عبادة قيمة. فمن جاء بالعبادة للتباهي والتفاخر، لم تُقبَل منه. فلاتتبعوا الكفار في الفخر والغرور والرياء والسمعة.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

اغترت قريش بقوتها وجمعها، وكان بينهم وبين بني كنانة مناوشات، ولم يأمنوا أن تحول كنانة في طريق الانتصار والفتح، فسرعان ما تمثل الشيطان في صورة زعيمها سراقة بن مالك ليقوي ظهر قريش ويشد أزرهم، وسار بذريته إلى المعركة، وطمأن أبا جهل وغيره بأنا معكم، نشد أزركم، فلاتخافوا جانب كنانة. فإني جار لكم. فلما حمي وطيس الحرب في بدر، ورأى الشيطان جبريل وغيره من الملائكة، وكان يده في يد أبي جهل، انتزعها منه وولى هاربًا، فقال أبوجهل: يا سراقة، إلى أين؟ أتغدر بنا في مثل هذا الوقت الحرج؟ فقال الشيطان: لست معكم، فإني أرى ما لاترون، أي الملائكة، فإني أخاف الله أي جيشه، فلاصبر لي عليه، فلعل العذاب الشديد يأخذني. قال قتادة: كذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أن جيش قريش قد أحيط بالهلاك، ولا قوة ولا منعة له. وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك. وعليه قال هنا: (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيْهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰنُ اِلَّا غُرُوْرًا) [النساء:١٢٠]، وقال: (كَمَثَلِ الشَّيْطٰنِ اِذْ قَالَ لِلْاِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ اِنِّيْ بَرِيْۤءٌ مِّنْكَ اِنِّيْۤ اَخَافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰلَمِيْنَ) [الحشر:١٦]، وقال: (وَقَالَ الشَّيْطٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْاَمْرُ اِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَاَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ اِلَّاۤ اَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيْ فَلَا تَلُوْمُوْنِيْ وَلُوْمُوْۤا اَنْفُسَكُمْ مَاۤ اَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَاۤ اَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ اِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَاۤ اَشْرَكْتُمُوْنِ مِنْ قَبْلُ اِنَّ الظّٰلِمِيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ) [إبراهيم:٢٢].

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

نظر المنافقون وضعفاء القلوب إلى شجاعة المسلمين وجرأتهم رغم قلة عددهم وعوزهم،

فقالوا: لقد اغتر المسلمون بدينهم وأنه حق، حتى ألقوا أنفسهم إلى التهلكة. فرد الله تعالى عليهم بأنه ليس اغترارًا؛ بل توكل على الله تعالى. فمن وثق بقدرة الله تعالى الكبرى وآمن بأن ما يكون فيه الحكمة والصواب، فإنه يتشجع في أمر الحق مثل هذه الشجاعة.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

أي يضربونهم ويقولون لهم: هذا الآن، وأنتم ذائقون عذاب جهنم لاحقًا. وأدرج كثير من المفسرين هذا أيضًا في قصة بدر. أي كان هذا موقف الملائكة من الكفار المقتولين يومئذ. ولكن لفظ الآية يعم الكفار كلهم، فالراجح فيما يبدو أنها قصة عالم البرزخ. وأما علاقته مع قصص بدر حينئذ فهي أن هذا سوء عاقبة الكفار في الدنيا، ولهم في البرزخ كذا، وأما عذاب الآخرة فلاتسأل عنه.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

أي هذا عذاب فعلتكم، وإن الله تعالى لايظلم أحدًا. ولو احتمل أن يصدر منه ذرة من الظلم لكان ظلامًا حسب شأنه العظيم، فإن الكامل يجب أن تكون صفاته كلها كاملة.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

أي من سنة الله تعالى القديمة أن الله تعالى أخذهم بنوع من العذاب حين كذبوا بآيات الله تعالى أو أصروا على محاربة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

أي حين يغير الناس بظلمهم وسوء فعلهم ما لهم من القوة الفطرية على الصلاح، وأبوا أن ينفقوا ما أعطاهم الله تعالى من النعم ظاهرها وباطنها فيما أرشد إليه من وجوه الخير؛ بل ينفقونها في معصية الله تعالى فإن الله تعالى يسلبهم نعمه، ويغير نعمته نقمةً، فهو سميع لأقوال العباد كلها وعليم بأحوالهم كلها، ولايخفى عليه شيء.

فصححوا معاملتكم أيا كانت معه. ويقول الشاه- عبد القادر- رحمه الله: مالم تتغير النية والاعتقاد فإن نعمة الله تعالى لاتُسلَبُ، فكأنه حمل (مَا بِأَنفُسِهِمْ) على خصوص النية والاعتقاد، كما لايخفى من الترجمة. والله أعلم.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ

فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

أهلك آل فرعون ومن قبلهم بجرائمهم ومعاصيهم، وأغرق آل فرعون بصفة خاصة. وذلك حين بغوا على الله تعالى وطغوا، وظلموا أنفسهم. وليس لله تعالى عداء مع مخلوق بنفسه.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

الذين أصروا على الكفر إصرارا دائمًا، وأمنوا عاقبته، وتعودوا الخيانة ونقض العهد، فإنهم شر الدواب عند الله تعالى، وهذا ما كان عليه آل فرعون من الغدر والخيانة، قال تعالى: (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوْا يٰمُوْسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيْٓ اِسْرَاءِيْلَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ اِلٰٓى اَجَلٍ هُمْ بٰلِغُوْهُ اِذَا هُمْ يَنْكُثُوْنَ) [٧-الأعراف:١٣٤-١٣٥) وهو ما عليه يهود بني قريظة وغيرهم من اليهود في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فكانوا يعاهدونه على عدم نصر مشركي مكة، ثم ينصرونهم، ويقولون: نسينا هذا العهد. ويتكرر ذلك منهم. ثم ذكر المعاملة مع أمثال هؤلاء الخونة.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

أي إن نقض هؤلاء العهد علنًا، وخرجوا لمحاربتك، فنكل بهم نكالًا فيه عبرة لمن وراءهم أو لأجيالهم اللاحقة، فلايتجرؤوا على نقض العهد، وأما إن لم ينقضوا العهد علنًا، ولاحت لك ملامح وقرائن تدل على استعدادهم لنقض العهد فلك أن ترد إليهم عهده، وأبلغهم تخليك عن العهد إن رأيت ذلك، ثم خذ من الإجراءات ما يناسب. وذلك سدًّا لباب الشك والريب على الفريقين فيما يخص العهد السابق. فيستويان في العلم والتنبه، ويتخذوا حذرهم. وحذارِ أن تواجههم بالخيانة؛ بل لابد من التصريح بالأمر، فإن الله تعالى لايحب الخيانة وإن كانت مع الكفار. ففي السنن أن معاوية رضي الله عنه صالح الروم، فجعل يسير جيشه إلى ثغور الروم قبل أن ينقضي العهد، ليدنوا منها، استعدادًا للهجوم عليهم إثر نهاية مدة الصلح، فإذا رجل على فرس يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرًا. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدنها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، فرجع معاوية، فإذا الشيخ هو عمرو بن عبسة رضي الله عنه[1].

==========

(١) أخرجه ابن زنجويه في «الأموال» برقم [٦٦٠].

متى يستجاب للدعاء؟

بقلم: **الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد** [*]

الإنسان مهما عصى أو ضل فإنه في وقت الشدة لا يلجأ لغير الله، ولا يدعو إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ (سورة يونس:١٢) والدعاء هو مخ العبادة؛ لأنه صلة مباشرة بين العبد وربه، يتذكر الإنسان فيه ربه ويتجه إليه في كل أمر، وفيه إظهار لضعف وعجز وتفاهة قدرة الإنسان أمام قدرات الله تبارك وتعالى، حيث يتذلل فيه هذا المخلوق الذي لا حول له ولا قوة، ويخضع ويبتهل ويتقرب إلى الخالق الذي بيده وحده الأمور كلها، يصرفها كيفما شاء فلا ناصر ولا معين إلا هو[١]، وقد أخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله تعالى يحب أن يسأل، روى الترمذي عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله؛ فإنه يحب أن يسأل» وقال تعالى في سورة النساء آية ٣٢ ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾. وأخرج أيضا ابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يدع الله عز وجل غضب عليه» كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب. وفي هذا المعني يقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنَيُّ آدم حين يسأل يغضب[٣]

وروى ليث عن شهر بن حوشب عن عبادة ابن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعطيت أمتي ثلاثًا لم تعط إلا الأنبياء كان الله إذا بعث نبيًا قال: ادعني استجب لك، وقال لهذه الأمة: ادعوني استجب لكم، وكان الله إذا بعث النبي قال: ما جعل عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ما جعل عليكم في الدين من حرج، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيدًا على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس»[٤] ويعلمنا سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه على الرغم من عدم

(*) ٦ شارع محمد مسعود متفرع من شارع أحمد إسماعيل، وابور المياه – باب شرق – الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.

توفر أسباب الإعاشة من ماء وزرع وغيرهما من مقومات الحياة، عندما أمره سبحانه وتعالى أن يترك زوجته هاجر وابنهما إسماعيل عند البيت الحرام، فلم يمنعه كل ذلك من التوجه إلى ربه داعيًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم:٣٧)(٥).

وكما أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء وحضهم عليه، وعدهم بالاستجابة لدعائهم، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (سورة غافر آية ٦٠) وقال تعالى في سورة البقرة آية ١٨٦ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ وعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرًا فيردهما خائبتين»(٦) فعلى الإنسان أن يدعو الله بما شاء فيما يراه خيرًا له، قال أنس: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»(٧) كما ينبغي عليه أن يكون على رجاء من الإجابة ولا يقنط من رحمة الله؛ لأنه يدعو كريما؛ فإن الله قد أجاب شر الخلق إبليس ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ (سورة الحجر الآيات ٣٦ و٣٧) وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث، إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وأما أن يكف عنه من السوء بمثلها» قالوا إذن نكثر؟ قال (الله أكثر) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ إنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»(٨) وعليه أن يفوض إلى الله الإجابة أو عدمها بما يصلحه، وأن ينظر إلى عدم الإجابة على أنه خير له، وهذا معنى ما تنص عليه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ (سورة الإسراء آية ١١) ويبين لنا الحق سبحانه وتعالى كيف أن مقاييس الخير الصحيحة ليست في أيدينا، فيقول جل جلاله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (سورة النساء آية ١٩) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ (سورة النور آية ١١) فالله سبحانه وتعالى لا يريد أن يرضي الداعي فقط؛ ولكنه يريد أن يحقق له ما يكون فيه خير له، ولو كان الله سبحانه وتعالى مجيبًا للدعاء

خيرًا أو شرًّا لأصاب الناس شر كثير[٩] كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح آية٦) فلم يقل الحق جل جلاله: إن بعد العسر يسرًا؛ بل قال: إن مع العسر يسرا حتى نعرف إذا أصابنا عسر وضيق، فإن العسر معه يسر من الله سبحانه وتعالى، وأن الفرج سيأتي حتمًا[١٠].

وليعلم كل داع لا يستجاب لدعوته في التو واللحظة أن قوله الحق في الآيتين (أجيب) و(أستجيب) لا يقتضي الاستجابة مطلقًا لكل داع ولا بكل مطلوب، فقد قال ربنا تبارك وتعالى في سورة الأعراف آية ٥٥ ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فقد أخبر جل وعلا أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب لهم، وكل مصر على كبيرة عالمًا بها أو جاهلًا فهو معتد[١١] كما قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ (سورة البقرة آية ١٨٦) إشارة إلى طريق إجابة الدعاء، وهو الاستجابة إلى أمر الله والإيمان به عز و جل. وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة. فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا أنس، أطب كسبك تجب دعوتك؛ فإن الرجل ليرفع اللقمة من الحرام إلى فيه «فمه» فلا يستجاب له دعوة أربعين يومًا»[١٢] كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك» وهذا استفهام على جهة الاستبعاد من قبول دعاء من هذه صفته، وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس. فإجابة الدعاء لها شروط في الداعي، وفي الدعاء، وفي الشيء المدعو به، فمن شروط الداعي أن يكون عالمًا بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل له، وأن يكون مجتنبًا لأكل الحرام، وألا يمل الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا كما قال: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» فيدخل في الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم، وقال سهل بن عبد الله التستري: شروط الدعاء سبعة هي التضرع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال[١٣]،

ومـن أراد الـدعاء فليـستقبل القبلـة، ويرفـع يديـه بحيــث يــرى بيــاض إبطيــه وليفتتحــه بــذكر الله وبالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل حاجته ثم يختمه بالـصلاة عـلى النبـي ﷺ؛ فـإن الله عـز وجـل يقبـل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما[١٤].

والدعاء مطلوب في كل مكان وفي كل وقت، فالإنسان إذا دعا الله واستعان به في كل وقت يصبح الله دائمًا في باله، ومن كان الله في باله فلا يضل ولا يشقى، والإنسان عندما يحس في قلبه أن الكون كله عاجز، وأن الله تبارك وتعالى وحده هو القادر يقربه هذا من الإيمان الصحيح[١٥]، ولكن هناك أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسحر ووقـت الفطـر ومـا بـين الأذان والإقامـة، وأوقـات الاضـطرار وحالـة الـسفر والمـرض، وعنـد نـزول المطر، والصف في سبيل الله[١٦]، ويوم الجمعة لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مـسلم يـسأل الله تعـالى شـيئًا إلا أعطـاه إيـاه» رواه مسلم[١٧]، ويوم عرفة، وحالة السجود أيضا أجدر بالإجابة، قـال أبـو هريـرة رضي الله عنـه: قـال النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أقـرب مـا يكـون العبـد مـن ربـه عـز وجل وهو ساجد، فأكثروا فيه من الدعاء»[١٨] كما حــدد رســول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثــة لا تــرد دعـوتهم: الإمـام العـادل، والـصائم حتـى يفطـر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفـتح لهـا أبـواب الـسماء ويقـول بعـزتي: لأنـصرنك ولـو بعـد حـين[١٩]. وفي صـحيح مـسلم عـن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قـال: «مـا مـن رجـل يـدعو لأخيـه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكًا، كلما دعا لأخيـه بـدعوة، قـال الملـك الموكـل بـه: آمـين ولـك بمثلـه»[٢٠] وعلامـات قبـول الـدعوة هـي أن يـرضى الإنـسان بواقعـه فمتـى أنـزل الله عـلى قلبـه الـسكينة والرضـا؛ فـإن دعوتـه قـد اسـتجيبت؛ لأنـه في هـذه الحالة يلقي الله في خاطره ما يجعله يستغني عما كان يطلب، ولا يجعله يخطر على باله مرة أخرى[٢١].

ولـو استعرضنا آيات الدعاء في القرآن الكريم نجد أن معظم هذه الآيات يتركز على طلب التوبة وغفـران الـذنوب والبعـد عـن المعاصي والقـرب مـن الله سـبحانه وتعـالى والمنزلـة الرفيعـة في الآخـرة، وبذلك فالقرآن الكريم يعلمنا ألا ينسينا طلب الدنيا طلب الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة البقرة: ٢٠١) وحسنة الدنيا هي كل ما يحسن العبد عند ربه ويقربه إليه، وحسنة الآخرة هي أن يزحزح العبد عن النار. وإذا دعـا المـؤمن للـدنيا وحـدها فإنـه تـساوى مـع الكـافر الـذي لا يـؤمن بـالآخرة، أو لا يلتفـت إليهـا، وعـن هـذا الـصنف يخبرنـا القـرآن الكـريم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي

﴿ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ (سورة البقرة:٢٠٠) فيجب على المـؤمن أن لا تتوقـف دعواتـه عنـد مطالبـه الدنيوية؛ بل يطلب من الدنيا ما يوصله للآخرة، وذلك كما يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (سـورة القـصص: ٧٧)[٢٢] كما كـان للرسـول ﷺ أدعية كثيرة تربط الحياة كلها في كل نشاطاتها بالله سبحانه وتعالى، فلا يخطو خطوة إلا ولها دعاء خاص لكل موقف وفعل[٢٣]، نقتبس منها ما يعيننا على إزاحة الفقر عن كواهلنا. فعن علي رضي الله عنه أن مكاتبًا جاءه فقال: إني عجزت عن كتابتي فأعني. قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ، لو كان عليك مثل جبل دينًا أداه عنك؟ قل: «اللّٰهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»[٢٤] كما قال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[٢٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم «اللّٰهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء، أنت آخذ بناصيته أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[٢٦]. وكان عليه السلام يستعيذ بالله قائلا: «اللّٰهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، وأعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة؛ فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن والهرم، ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، اللّٰهم إنا نسألك قلوبًا أواهة مخبتة منيبة في سبيلك، اللّٰهم إني أسألك عزائم مغفرتك، وموجبات رحمتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة من النار، اللّٰهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء، اللّٰهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة الدجال، اللّٰهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق، وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء، اللّٰهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك، اللّٰهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة

الفقر وشر فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم، اللّهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء». وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالجوامع الكوامل قولي: اللّهم، إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا برحمتك يا أرحم الراحمين» آمين يا رب العالمين يا مجيب السائلين وصلى الله على سيدنا محمد(٢٧).

* * *

المراجع

(١) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، من ص ١٤ – ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٥، ص ١٦٤ – ١٦٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٤، ص٨٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٢، ص٣٠٩.

(٥) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص ٤٩-٥٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج١، ص ٢١٨.

(٧) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج ١٥، ص ٣٢٧.

(٨) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٢، من ص ٣١٠ – ٣١٣.

(٩) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، من ص ٩ – ١٠.

(١٠) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص ٤٩-٥٠.

(١١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٢، ص٣٠٩.

(١٢) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص٨٠.

(١٣) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٢، من ص ٣١١ -٣١٣.

(١٤) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، ج١، من ص ٢٦٩ – ٢٧١.

(١٥) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص ١١.

(١٦) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٢، من ص ٣١٣.

(١٧) من كتاب الفقه علي المذاهب الأربعة عبد الرحمن الجزيري، ج١، ص٤٠٣.

(١٨) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج١، ص٢٦٨.

(١٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج١، ص ٢١٩.

(٢٠) مجموع الفتاوى ابن تيمية، ج١، ص ٣٢٩.

(٢١) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص ٩٤.

(٢٢) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، من ص ٢٢ – ٢٥.

(٢٣) الدعاء المستجاب محمد متولي الشعراوي، ص ٥٨.

(٢٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، ص١٤٠ –١٤١.

(٢٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٤، ص ٢٨١.

(٢٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٤، ص ٣٠٢.

(٢٧) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، ج١، من ص ٢٧٦ – ٢٨٤.

الدين ضرورة اجتماعية

بقلم: الأستاذ السيد محمد أبو المجد

قال الله تعالى وصدق الله العظيم ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٣-٨٥].

إن الحاجة إلى الإصلاح أصبحت ضرورة لا مفر منها ولا مناص، وعلى الصفوة أن تحقق اليوم وفي الغد، أكثر مما يجعلنا نفاخر فقط بما حققناه في أمسنا القريب والبعيد وإذا كنا قد حاولنا أن نرتفع لمستوى ماضينا العظيم، فإننا في الوقت ذاته ندرك أن هذا الماضي لا قيمة له ولا جدوى فيه إذا كانت أمجاده تأريخا يروى، يشب خيالنا إليه، وتقصر أعمالنا عن الوصول إلى مستواه.

إن سلطة القانون، أوالدعوة الأخلاقية، أو النهضة العلمية، أوالأنظمة الاقتصادية، أو المذاهب الفلسفية، كل أولئك وغيره مما يستولده الفكر البشري في أدق صوره، وأعمق مغازيه، وأوفى مفاهيمه، لن يكون أساسًا لإصلاح ثابت الدعائم، دائم الأثر، فياض الموجات، يأخذ بيد المجتمعات والشعوب لتحقيق حياة أفضل، وغد مشرق سعيد.

إن القانون يتناول من أمور الناس ما ظهر منها دون ما بطن، ومجاله في الثواب محدود، ونظرته إلى ذوي الفضائل قاصرة، وكل عيون القانون مفتوحة ومركزة لرصد المنحرفين عن الجادة، أو لتنظيم الحياة اليومية العادية في صورها المادية الظاهرة.

هذا وربما نجحت الدعوة إلى مكارم الأخلاق في الأخذ بيد المجتمع نحو حياة تسودها بعض الفضائل والمثل والقيم الرفيعة، وقد تنجح هذه الدعوة في بث ألوان من صور المروءة في النفوس، فيقل الكذب، ويندر الغش ويكثر الإيثار، ويشيع حب الجار، ولكن هل بهذا وحده تتحقق الحياة المثلي للفرد والمجتمع بصورة عملية؟ أو هل يظل

الفرد أمينا لمبادئه الأخلاقية السامية، لو رأى عمليا عدم جدواها في مجتمع يأكل قويه ضعيفه؟؟! ثم ما هذه المثل الأخلاقية! وما مقاييسها؟ وهل هي ثابتة لا تتغير من زمن لآخر، أو من مجتمع إلى مجتمع؟!! ألم تكن موائد الميسر ومعاقرة الخمر من مفاخر بعض المجتمعات، وهي اليوم سبة اجتماعية ورذيلة تتابع بالزجر والعقاب؟

إن كثيرًا من الفضائل الخلقية هنا رذائل خلقية هناك، فكيف نطمئن في إصلاح مجتمعنا بطريقة ثابتة دائمة إلى هذه القواعد الخلقية وحدها، وهي على ما رأينا من قصور واختلاف؟؟

ولا شك أن للعلم معاييره في الإصلاح، بيد أنه واقعي مادي قد يحقق للإنسان الربح، ويضمن له الكسب، ويتيح له لونًا من ألوان الرفاهية، وقد يعطي الدولة فرصا طيبة لبسط السلطان، ونفوذ الجاه، وعلو المنزلة، ولكن هل به وحده تتحقق سعادة المجتمع؟! وهل بهذه المظاهر المادية تسمو النفوس وتصفو الأرواح وتطمئن القلوب؟!!

إنه مما لا شك فيه أن ا لجانب المادي شطر من وجودنا، والجانب الروحي شطر أصيل فينا، ولا بد للمصلح أن يراعي في إصلاحه إلى جوانب ا لمظهر المادي الجوانب الروحية، حتى تهدأ أرواح مضطربة، وتسعد نفوس حائرة، وتطمئن قلوب قلقة.

ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق ا لدين الصحيح، والإيمان الراسخ، والعقيدة القوية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) نعم. لا بد من الاعتماد في كل إصلاح على سلطة الدين المستقرة في النفوس، وقوة العقيدة الفطرية في القلوب، حتى يثمر الإصلاح، ويبقى أثره على مر الحقب، وتطاول القرون.

التدين أمر فطري

ولا نحاول ولن نحاول بهذا أن نعرض على نفوس الناس ما يعارض فطرتهم، أو يخالف طبائعهم؛ لأن الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها. ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [آية ٣٠ من سورة الروم].

الدين ضرورة اجتماعية

ومنذ وجدت الجماعات البشرية اتجهت في سموها إلى هذه الروح الدينية، وكل مجتمع كان ينحو في فهم تدينه على حسب ما يهديه إليه عقله، أو ترشده إليه بيئته، أو يوحي به إليه مفكروه، أو ينذره

به رسله ولكنها جميعا كانت تلتقي عند قدر واحد هو الدين في ذاته، والعبادة في مبدئها.

وبغير الدين تصبح الجماعات البشرية إلى الحيوانية أقرب، وتصير حياتنا في هذه الأرض مبتورة الصلات، محدودة الهدف، مبهمة القيمة، ولهذا رأينا كل المجتمعات – حتى البدائي منها – لا تستطيع أن تقيم حياتها على غير دين.

وقد رأينا ابن المقفع يوم أن أزمع اعتناق الإسلام يكره أن يبيت ليلة واحدة على غير دين، فقد وعد أن يسلم من الغد، ثم أدى بعض مراسيم العبادة المجوسية في المساء، ولما سئل كيف تفعل ذلك وأنت على وعد بالإسلام من الغد قال: «كرهت أن أبيت على غير دين».

بل إن الملاحدة أنفسهم يفزعون إلى الدين عندما تنزل بهم النوازل، وتصيبهم الأحداث، أو تتقدم بهم السن ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٢).

وكثيرًا ما ردد الاجتماعيون ضرورة الدين كظاهرة اجتماعية، وكثير ما سمعنا منهم «لو لم يكن الله موجودا لوجب أن يوجد» وعلى هذا سارت كل المجتمعات حتى الوثني منها، وما الأصنام إلا ظواهر لمحاولة البشر خلق الديانات، وإطلاق أثرها في النفوس، حتى تكون هديًا للمجتمع، ودافعا له على السمو في مضمار الحياة.

الدين القيم

وقد أغنانا الله جل جلاله بدين قويم، يجمع بين فلاح الدنيا وصلاح الآخرة، ويأخذ من الفرد فتزدهر الجماعة، وينظم الأسرة فترقي الدولة، ويرسم النظم للمجتمع المتكامل المتعاون القوي السليم.

فهل نترك أصوله لنلتمس وسائل الإصلاح من غيره، وهو أس كل صلاح ودعامة كل خير؟ وقد حقق بالفعل رسالة الخير والصلاح والقوة لمجتمع لم تتهيأ له أسباب النهضة إلا بهذا الدين ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٦١).

إن الإسلام هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد الإسلامية وما ران عليها من آثار الماضي البغيض؛ لأنه يعالج الظاهر والباطن، وينهض بالمادة والروح، ويسمو بالحياة الدنيا، ويطهر النفس، وينظم المعاملات، ويسن الشرائع، ويقر العقيدة في سماحة ويسر، ويسعد بها الفرد، وتستقر ا لجماعة،

فلا يصدر المسلم في كل حركاته وسكناته إلا متجهًا إلى الله، فإذا عمل عملا اتجه فيه إلى الله، فلا رقيب عليه إلا وازعه الديني، ولا يخشى في تصرفاته إلا فاطر الأرض والسماوات، المطلع على سرائر القلوب الملم بخلجات ا لنفوس، مستحضرًا قول الرسول الكريم في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» واثقًا بأن الله مطلع على دخائل النفوس، ملم بهواجس القلوب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة:٧).

وبهذا يصبح مشتغلًا بالله مقبلًا عليه في يقظته ومنامه، في سكونه وحركاته، في خلوته واجتماعه، فلا يراعي إلا الله، ولا يخشى في الحق غير الله، ولا يطيع مخلوقًا في معصية الخالق، فإذا ما دعا داعي التضحية بالنفس والمال أسرع ملبيًا النداء، هاتفًا من أعماق قلبه في قوة وإيمان ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه:٨٤).

ترى المسلم منهم في رمضان قد برح به الجوع، وأرمضه العطش، ولا رقيب عليه ولا حسيب، ولو شاء لسد جوعه، وبل غلته، ولكن ضميره الديني يبقى واقفًا له بالمرصاد، مذكرًا إياه بربه منبهًا إياه إلى دينه، فيمسك عن الطعام، والشراب. وهكذا يتولى الدين البواطن والسرائر، كما يتولى المظاهر والظواهر، ويعالج الأرواح كما يعالج الأبدان، ويعنى بشؤون الدنيا كما يعنى بشؤون الآخرة، ويمنع عن الإنسان الضرر، كما يجلب إليه النفع.

وهو بهذا لا يدع وسيلة للشر إلا دفعها، ولا بابا للخير إلا فتحه على مصراعيه، فهو وحده المنهج القويم ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) وبه تتخلص الجماعة من سمات التخلف التي لا يصل إليها القانون وحده، ولا تجدي فيها التعاليم الخلقية وحدها، ولا يبرئ منها التعليم وحده؛ بل لا يرسم علاجها الدائم الناجع إلا الدين وتعاليمه، والعقيدة وسلطانها.

فعلى أساس الدين وحده نستطيع أن نصل ماضينا الزاهر بمستقبلنا الباسم، ونطهر نفوسنا من الخوف والضعف، والأثرة والحقد، وسوء الظن بأنفسنا وبالناس، ونتجنب الغرور السلبي الذي يحملنا على المباهاة بغير عمل، والتعصب الأعمى الذي يحملنا على الكفر بكل ما يخالفنا، ولو كان

صوابا، ويجعلنا نتتبع أخطاء غيرنا، دون أن نرتفع بأنفسنا عن مستواها.

إن عصورا مظلمة أفسدت نفوسنا، وتركت فيها كثيرا من الرذائل، تركت فيها الخوف من حمل التبعات، والاستهتار بها، تركت فيها الخوف من القانون والاحتيال على التخلص منه، دون شجاعة لطلب تغييره إن كان معيبا أو به قصور، تركت في نفوسنا كما يقول أحد رواد المصلحين «وحدانية وثنية تحمل كل واحد منا على الإيمان بنفسه وسوء الظن بغيره، والانطواء في علاقاتنا بالناس على كثير من الخوف والحذر، ومن الرغبة في الكيد، ومن محاولة الاستعلاء والتسلط، ومن الحرص على انتهاز الفرص».

وليس من سبيل أفعل – في إزالة كل ذلك من الدين، فمن ا لضروري – والحالة هذه – أن نتجه اتجاهًا صادقًا إلى الله نترسم هديه، متمثلًا في دينه الحنيف، نلتمس منه العون في إعادة تنظيم حياتنا، بما يكفل لنا أسرع طريق إلى الإصلاح، وأضمن وسيلة وأثبتها للوصول إلى ما ننشده للأمة الإسلامية.

والإسلام آخر كلمة أنزلها الله من السماء، ورسوله خاتم الرسل والأنبياء، ودعوته مكملة للديانات السابقة، شارحة لها ومهيمنة عليها ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨) فالرسول صلوات الله عليه ليس بدعًا من الرسل، ولا شريعته بدعًا من الديانات ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (فصلت:٤٣) ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (النساء:١٦٣) وإذا كانت بعض الديانات قد اقتصرت بحكم التطور على جانب دون جانب، أو تناولت – لظروف خاصة – بعض شؤون الحياة دون البعض، فإن الإسلام وهو آخر الديانات جميعًا تناول شؤون الحياتين جميعًا، وأعد أتباعه للدنيا كما أعدهم للآخرة، وجمع بين العقيدة والإيمان، كما جمع بين العلم والعمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠).

وقد أجمع كبار المشرعين وعلماء القانون – حتى من غير المسلمين في جميع بقاع العالم – على أن الإسلام مصدر هام من مصادر التشريع، وهو بهذا كفيل باستئناف نهضة قوية صالحة تجدد العهد بثورته الإصلاحية منذ ثلاثة عشر قرنا، ننهج نهجها، ونحذو حذوها، ونهتدي بهديها إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى:٥٣).

* * *

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٥- المائدة: ١)

بقلم: رئيس التحرير

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]

١- فإن قيل: إن البهيمة اسم الجنس، والأنعام اسم النوع فقوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ يجري مجرى قول القائل: حيوان الإنسان وهومستدرك.

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن المراد بالبهيمة وبالأنعام شيء واحد، وإضافة البهيمة إلى الأنعام للبيان، وهذه الإضافة بمعنى ﴿مِنۡ﴾ كخاتم فضة، ومعناه البهيمة من الأنعام أوللتأكيد كقولنا: نفس الشيء وذاته وعينه. ذكره الرازي، و الزمخشري، وأبو حيان، والنسفي وأبوالسعود، والبيضاوي[١].

وذكره الآلوسي وقال: واعترض بأن البهيمة اسم جنس، والأنعام نوع منه، فإضافتها إليه كإضافة حيوان إنسان وهي مستقبحة، وأجيب بأن إضافة العام إلى الخاص إذا صدرت من بليغ وقصد بذكره فائدة فحسنة كمدينة بغداد - فإن لفظ بغداد لما كان غيرعربي لم يعهد معناه أضيف إليه مدينة لبيان مسماه وتوضيحه - و كشجر الأراك- فإنه لما كان الأراك يطلق على قضبانه أضيف لبيان المراد وهكذا وإلا فلغوٌ زائد مستهجن، وهنا لما كان الأنعام قد يختص بالإبل؛ إذ هوأصل معناه على ما قيل، ولذا لا يقال: النَّعم إلا لها أضيف إليه بهيمة إشارة إلى ما قصد به[٢].

الثاني: هي الأنعام كلها، هي الإبل والبقرو الغنم كأنه قال: أحلت لكم الأنعام، وأراد تحليل ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام. قاله الحسن وقتادة والسدي والضحاك. ذكره الطبري- ورجحه- والبغوي، والثعالبي[٣].

الثالث: أن المراد بالبهيمة شيء، وبالأنعام شيء آخر وعلى هذا التقدير ففيه وجهان:

الأول: أن المراد من بهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ونحوها، كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم في الاجتراروعدم الأنياب، فأضيفت إلى الأنعام لحصول المشابهة، و فائدة هذه الإضافة هنا الإشعار بعلة الحكم المشتركة بين المتضايفين كأنه قيل: أحلت لكم البهيمة المشبهة

بالأنعام التي بين إحلالها فيما سبق لكم المماثلة لها في مناط الحكم. وهوقول الضحاك والفراء، وحكاه الطبري عن قوم، وحكاه غيره عن السدّي والربيع وقتادة. وقال ابن عطية: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها، وكأن المفترس كالأسد، وكل ذي ناب خارج عن حدّ الأنعام، فبهيمة الأنعام هي الراعي من ذوات الأربع. ذكره الرازي والزمخشري، و الطبري، وابن كثير- وعزاه إلى الحسن وقتادة - والبغوي وعزاه إلى الكلبي، وأبوحيان، والثعالبي، والبيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي(٤).

الثاني: أن المراد ببهيمة الأنعام أجنة الأنعام. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بقرة ذبحت فوجد في بطنها جنين، فأخذ ابن عباس بذنبها وقال: هذا من بهيمة الأنعام. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنها أجنة الأنعام، وذكاته ذكاة أمه. ذكره الرازي، والطبري، وابن كثير، والبغوي، والآلوسي، وأبوحيان، و القرطبي - واستبعد اه - وعلل القرطبي بأن الله تعالى قال: ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وليس في الأجِنّة ما يُستثنى(٥).

٢- قال أبوحيان: (فإن قلت): ما فائدة الاستثناء بقيد بلوغ الحل والصيد الذي في الحرم لا يحل أيضًا؟ (قلت): الصيد الذي في الحرم لا يحل للمحرم ولا لغير المحرم، وإنما يحل لغير المحرم الصيد الذي في الحل، فنبه بأنه إذا كان الصيد الذي في الحل يحرم على المحرم، وإن كان حلالًا لغيره، فأحرى أن يحرم عليه الصيد الذي هو بالحرم. وعلى هذا التفسير يكون قوله: إلا ما يتلى عليكم، إن كان المراد به ما جاء بعده من قوله: حرمت عليكم الميتة الآية، استثناء منقطعًا؛ إذ لا يختص الميتة وما ذكر معها بالظباء وحمر الوحش وبقره ونحوها، فيصير لكنْ ما يتلى عليكم أي: تحريمه فهو محرم. وإن كان المراد ببهيمة الأنعام الأنعام والوحوش، فيكون الاستثناآن راجعين إلى المجموع على التفصيل، فيرجع إلا ما يتلى عليكم إلى ثمانية الأزواج، ويرجع غير محلي الصيد إلى الوحوش؛ إذ لا يمكن أن يكون الثاني استثناء من الاستثناء الأول. وإذا لم يمكن ذلك، وأمكن رجوعه إلى الأول بوجه ما جاز. وقد نص النحويون على أنه إذا لم يمكن استثناء بعض المستثنيات من بعض كانت كلها مستثنيات من الاسم الأول نحو قولك: قام القوم إلا زيدًا، إلا عمرًا، إلا بكرًا (فإن قلت): ما ذكرته من هذا التخريج الغريب وهو أن يكون المحل من صفة الصيد، لا من صفة الناس، ولا من صفة الفاعل المحذوف، يعكر عليه كونه كتب في رقم المصحف بالياء، فدل ذلك على أنه من صفات الناس، إذ لو كان من صفة الصيد لم يكتب بالياء، وبكون الفراء

وأصحابه وقفوا عليه بالياء يأبى ذلك. (قلت): لا يعكر على هذا التخريج لأنّهم كتبوا كثيرًا رسم المصحف على ما يخالف النطق نحو: بأييد بياءين بعد الألف، وكتبهم أولئك بواو بعد الألف، و بنقصهم منه ألفًا. وكتابتهم الصلحت ونحوه بإسقاط الألفين، وهذا كثير في الرسم، وأما وقفهم عليه بالياء فلا يجوز؛ لأنه لا يوقف على المضاف دون المضاف إليه، وإنما قصدوا بذلك الاختبار أو ينقطع النفس، فوقفوا على الرسم كما وقفوا على ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ من غير واو اتباعًا للرسم. على أنه يمكن توجيه كتابته بالياء والوقف عليه بياء بأنه جاء على لغة الأزد، إذ يقفون على بزيد بزيدي بإبدال التنوين ياء، فكتب (محلي) بالياء على الوقف على هذه اللغة، وهذا توجيه شذوذ رسمي، ورسم المصحف مما لا يقاس عليه(٦).

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قرأ الجمهور غير بالنصب. واتفق جمهور من وقفنا على كلامه من المعربين و المفسرين على أنه منصوب على الحال. ونقل بعضهم الإجماع على ذلك.

واختلفوا في صاحب الحال: فقال الأخفش: هو ضمير الفاعل في أوفوا. وقال الجمهور: الزمخشري، وابن عطية وغيرهما: هو الضمير المجرور في أحلّ لكم. وقال بعضهم: هو الفاعل المحذوف من أجل القائم مقامه المفعول به، وهو الله تعالى. وقال بعضهم: هو ضمير المجرور في عليكم.

ونقل القرطبي عن البصريين أن قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هو استثناء من بهيمة الأنعام. وأنّ قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ استثناء آخر منه. فالاستثناءان معناهما من بهيمة الأنعام، وفي المستثنى منه والتقدير: إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون، بخلاف قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ على ما يأتي بيانه وهو قول مستثنى مما يليه من الاستثناء. قال: ولو كان كذلك لوجب إباحة الصيد في الإحرام؛ لأنه مستثنى من المحظور إذا كان إلا ما يتلى عليكم مستثنى من الإباحة، وهذا وجه ساقط، فإذا معناه: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد وأنتم حرم إلا ما يتلى عليكم سوى الصيد انتهى. وقال ابن عطية: وقد خلط الناس في هذا الموضع في نصب غير، وقدروا تقديمات و تأخيرات، وذلك كله غير مرضي، لأن الكلام على اطراده متمكن استثناء بعد استثناء، انتهى كلامه. وهو أيضًا ممن خلط على ما سنوضحه.

فأمّا قول الأخفش: ففيه الفصل بين ذي الحال والحال بجملة اعتراضية؛ بل هي منشئة أحكامًا، وذلك لا يجوز. وفيه تقييد الإيفاء بالعقود بانتفاء إحلال الموفين الصيد وهم حرم، وهم مأمورون بإيفاء العقود بغير قيد، ويصير التقدير: أوفوا بالعقود في حال انتفاء كونكم محلين الصيد وأنتم حرم، وهم

قد أحلت لهم بهيمة الأنعام أنفسها. وإنْ أريد به الظباء وبقر الوحش وحمره فيكون المعنى: وأحل لكم هذه في حال انتفاء كونكم محلين الصيد وأنتم حرم، وهذا تركيب قلق معقد، ينزه القرآن أن يأتي فيه مثل هذا. ولو أريد بالآية هذا المعنى لجاء على أفصح تركيب و أحسنه. وأما قول من جعله حالًا من الفاعل. وقدّره: وأحل الله لكم بهيمة الأنعام غير محل لكم الصيد وأنتم حرم، قال كما تقول: أحلت لك كذا غير مبيحه لك يوم الجمعة، فهو فاسد؛ لأنهم نصوا على أنّ الفاعل المحذوف في مثل هذا التركيب يصير نسيًا منسيا، ولا يجوز وقوع الحال منه. لو قلت: أنزل المطر للناس مجيبًا لدعائهم، إذ الأصل أنزل الله المطر مجيبًا لدعائهم لم يجز، وخصوصًا على مذهب الكوفيين ومن وافقهم من البصريين، لأن صيغة الفعل المبني للمفعول صيغة وضعت أصلًا كما وضعت صيغته مبنيًا للفاعل، وليست مغيرة من صيغة بنيت للفاعل، ولأنه يتقيد إحلاله تعالى بهيمة الأنعام إذا أريد بها ثمانية الأزواج بحال انتفاء إحلاله الصيد وهم حرم، وهو تعالى قد أحلها في هذه الحال وفي غيرها.

وأما ما نقله القرطبي عن البصريين، فإنْ كان النقل صحيحًا فهو يتخرج على ما سنوضحه إن شاء الله تعالى، فنقول: إنما عرض الإشكال في الآية من جعله (غير محلي الصيد) حالًا من المأمورين بإيفاء العقود، أو من المحلل لهم، أو من المحلل وهو الله تعالى، أو من المتلو عليهم. وغرّهم في ذلك كونه كتب محلي بالياء، وقدّره هم أنه اسم فاعل من أحل، وأنه مضاف إلى الصيد إضافة اسم الفاعل المتعدي إلى المفعول، وأنه جمع حذف منه النون للإضافة. وأصله: غير محلين الصيد وأنتم حرم، إلا في قول من جعله حالًا من الفاعل المحذوف، فلا يقدر فيه حذف النون؛ بل حذف التنوين. وإنما يزول الإشكال ويتضح المعنى بأن يكون قوله: محلي الصيد، من باب قولهم: حسان النساء. والمعنى: النساء الحسان، وكذلك هذا أصله غير الصيد المحل. والمحل صفة للصيد لا للناس، ولا للفاعل المحذوف. ووصف الصيد بأنه محل على وجهين: أحدهما: أنْ يكون معناه دخل في الحل كما تقول: أحل الرّجل أي: دخل في الحل، وأحرم: دخل في الحرم. والوجه الثاني: أن يكون معناه صار ذا حل، أي حلالًا بتحليل الله. وذلك أن الصيد على قسمين: حلال، و حرام. ولا يختص الصيد في لغة العرب بالحلال. ألا ترى إلى قول بعضهم: إنه ليصيد الأرانب حتى الثعالب؛ لكنه يختص به شرعًا؟ وقد تجوزت العرب فأطلقت الصيد على ما يوصف بحل ولا حرمة نحو قوله:

ليث عثري يصطاد الرجال إذا
ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وقال آخر:

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله

فهل غير صيد أحرزته حبائله.

وقال آخر:

وميّ تصيد قلوب الرّجال

وأفلت منها ابن عمر وحجر

ومجيء أفعل على الوجهين المذكورين كثير في لسان العرب. فمن مجيء أفعل لبلوغ المكان ودخوله قولهم: أحرم الرّجل، وأعرق، وأشأم، وأيمن، وأتهم، وأنجد إذا بلغ هذه المواضع وحل بها. ومن مجيء أفعل بمعنى صار ذا كذا قولهم: أعشبت الأرض، وأبقلت، وأغد البعير، وألبنت الشاة، وغيرها، وأجرت الكلبة، و أصرم النخل، وأتلت الناقة، وأحصد الزرع، وأجرب الرّجل، وأنجبت المرأة. وإذا تقرر أنّ الصيد يوصف بكونه محلًا باعتبار أحد الوجهين المذكورين من كونه بلغ الحلّ، أو صار ذا حل، اتضح كونه استثناء من استثناء؛ إذ لا يمكن ذلك لتناقص الحكم. لأنّ المستثنى من المحلل محرم، والمستثنى من المحرم محلل؛ بل إن كان المعني بقوله: بهيمة الأنعام، الأنعام أنفسها، فيكون استثناء منقطعًا. وإن كان المراد الظباء وبقر الوحش وحمره ونحوها، فيكون استثناء متصلًا على أحد تفسيري المحل، استثنى الصيد الذي بلغ الحل في حل كونهم محرمين.

قال الثعالبي: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ [المائدة:١]، وهو استثناءٌ بعد استثناءٍ. قال: (ص): وهذا هو قولُ الجمهورِ، واعترض بأنَّه يلزم منه تقييدُ الحِلِّيَّةِ بِحَالَةِ كَوْنهم غيْرَ محلِّين الصَّيْدَ، وهم حُرُمٌ، والْحِلِّيَّةُ ثابتةٌ مطلقًا. قال: (ص): والجوابُ عندي عَنْ هذا أنَّ المفهوم هنا مَتْرُوكٌ؛ لدليلٍ خَارجيٍّ، وكثيرٌ في القرآن وغيره من المَفْهُومَاتِ المتروكَةِ لِمُعارِضٍ، ثم ذكر ما نقله أبو حَيَّان من الوُجُوه التي لم يَرْتَضِهَا. (م): وما فيها من التكلُّف، ثم قال: ولا شَكَّ أنَّ ما ذكره الجمهورُ مِنْ أنَّ «غَيْر»: حالٌ، وإنْ لزم عنه الترك بالمفهومِ، فهو أوْلَىٰ من تَخْرِيجٍ تَنْبُو عنه الفُهُوم. انتهى[٧].

قال البيضاوي: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وقيل: من واو ﴿أَوْفُواْ﴾ وقيل: استثناء وفيه تعسف و﴿الصَّيْدِ﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال مما استكن في ﴿مُحِلِّي﴾، والـ﴿حرم﴾ جمع حرام وهو المحرم[٨].

قال الزمخشري: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ نصب على الحال من الضمير في (لكم) أي أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله: ﴿أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ وقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال عن محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون، لئلا نحرج عليكم[٩].

قال أبو السعود: ﴿إِلاَّ مَـا يُـتْلَىٰ عَلَـيْكُمْ﴾ استثناء من (بهيمةُ) أي إلا مُحرَّمَ ما يتلى عليكم من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ونحوَه، أو إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الـصَّيْدِ﴾ أي الاصطيادِ في البَرّ أو أكلِ صيده، وهو نصبٌ على الحالية من ضمير (لكم)، ومعنى عدمِ إحلالِهم له تقريرُ حرمته عملًا واعتقادًا، وهو شائع في الكتاب والسنة، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُـرُمٌ﴾ أي مُحرمون، حال من الضمير في (مُحِلِّي)، و فائدةُ تقييد إحلالِ بهيمةِ الأنعام بما ذُكر من عدم إحلالِ الصيد حالَ الإحـرام - عـلى تقـدير كـونِ المـراد بهـا الظبـاءَ ونظائرَها- ظاهرةٌ، لما أن إحلالها غيرُ مُطلق، كأنه قيل: أحل لكم الصيدُ حالَ كونِكم ممتنعين عنه عندإحرامكم.

وأما على التقدير الأول ففائدته إتمامُ النعمة وإظهارُ الامتنان بإحلالها بتذكير احتياجهم إليه، فإن حرمةَ الصيد في حالة الإحرام من مظانِّ حاجتهم إلى إحلال غيرِه حينئذ كأنه قيل: أحلت لكم الأنعام مطلقًا حالَ كونكم ممتنِعين عن تحصيل ما يُغنيكم عنها في بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها. وفي إسناد عدم الإحلال إليهم بالمعنى المذكور - مع حصول المراد بأن يقال: غيرُ محلَّلٍ لكم، أو محرمًا عليكم الصيدُ حال إحرامكم- مزيدُ تربيةٍ للامتنان، وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة، فإن تحريم الصيد عليهم إنما يوجب حاجتهم إلى إحلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملًا واعتقادًا، مع ما في ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُـمُ مَـا يُرِيـدُ﴾ من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئتُه المبْنيةُ على الحِكَم البالغة، فيدخل فيها ما ذُكر من التحليل والتحريم دخولًا أوليًا، ومعنى الإيفاء بهما الجَرَيانُ على موجبهما عقدًا وعملًا، والاجتنابُ عـن تحليـل المحرمـات وتحـريم بعـضِ المحلَّـلاتِ كالبَحيرة ونظائرِها التي سيأتي بيانها[١٠].

قال الألوسي: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الـصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في لكم على ما عليه أكثر المفسرين، والصيد يحتمل المصدر والمفعول، وقوله تعالى: ﴿وَأَنـتُمْ حُـرُمٌ﴾ حال عما استكن في محل، والحرم جمع حرام وهـو المحـرم، و محـصل المعنـى أحلـت لكـم هـذه الأشـياء لا محلـين الاصـطياد، أوأكـل الـصيد في الإحـرام، وفسرالزمخـشري عـدم إحـلال الـصيد في حالة الإحرام بالامتناع عنه وهم محرمون حيث قال: كأنـه قيـل: أحللنـا لكـم بعـض الأنعـام في حالـة امتناعكم عن الصيد وأنتم حرم لئلا يكون عليكم حرج، ولم يحمل الإحلال على اعتقاد الحل ظنًا منه أن تقييد الإحلال بعدم اعتقاد الحل غير موجه، وقد يقال: إن الأمر كذلك لو كان المراد مطلق اعتقاد الحل، أما لو كان المراد عدم اعتقاد ناشئ من الشرع ومترتب منه فلا؛ لأن حاله إن لم يكن عين حال

الامتناع فليس بالأجنبي عنه كما لايخفى على المتدبر، وأشار إليه شيخ مشايخنا جرجيس أفندي الإربلي رحمة الله تعالى عليهم.

واعترض في «البحر» على ما ذهب إليه الأكثرون بأنه يلزم منه تقييد إحلال بهيمة الأنعام بحال انتفاء حل الصيد وهم حرم، وهي قد أحلت لهم مطلقًا، فلا يظهر له فائدة إلا إذا أريد ببهيمة الأنعام الصيود المشبهة بها كالظباء وبقر الوحش وحمره، ودفع بأنه مع عدم اطراد اعتبار المفهوم يعلم منه غيره بالطريق الأولى؛ لأنها إذا أحلت في عدم الإحلال لغيرها وهم محرمون لدفع الحرج عنهم، فكيف في غير هذه الحال؟ فيكون بيانًا لإنعام الله تعالى عليهم بما رخص لهم من ذلك وبيانًا لأنهم في غنية عن الصيد وانتهاك حرمة الحرم. وعبارة الزمخشري كالصريحة في ذلك، ودفعه العلامة الثاني بأن المراد من الأنعام ما هو أعم من الإنسي والوحشي مجازًا أو تغليبًا أو دلالة أو كيفما شئت، وإحلالها على عمومها مختص بحال كونكم غيرمحلين الصيد في الإحرام؛ إذ معه يحرم البعض وهو الوحش، ولا يخفى أنه توجيه وحشي لا ينبغي لحمزة - غاية التنزيل - أن يقصده من مراصد عباراته، وذهب الأخفش إلى أن انتصاب (غير) على الحالية من ضمير أوفوا، وضعف بأن فيه الفصل من الحال وصاحبها بجملة ليست اعتراضية إذ هي مبينة، وتخلل بعض أجزاء المبين بين أجزاء المبين مع ما يجب فيه من تخصيص العقود بما هو واجب أومندوب في الحج، وإلا فلا يبقى للتقييد بتلك الحال -مع أنهم مأمورون بمطلق العقود مطلقا-وجه.

وزعم العلامة أنه أقرب من الأول معنى وإن كان أبعد لفظًا، واستدل عليه بما هو على طرف الثمام، ثم قال: ومنهم من جعله حالًا من فاعل أحللنا المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ ويستلزم جعل ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أيضًا حالًا من مقدر أي حال كوننا غير محلين الصيد في حال إحرامكم وليس ببعيد إلا من جهة انتصاب حالين متداخلين من غير ظهورذي الحال في اللفظ.

وتعقبه أبوحيان «بأنه فاسد؛ لأنهم نصوا على أن الفاعل المحذوف في مثل هذا يصير نسيًا منسيًا فلا يجوز وقوع الحال منه، قد قالوا لو قلت: أنزل الغيث مجيبًا لدعائهم على أن مجيبًا حال من فاعل الفعل المبني للمفعول لم يجز لا سيما على مذهب القائلين بأن المبني للمفعول صيغة أصلية ليست محولة عن المعلوم على أن في التقييد أيضًا مقالًا، وجعله بعضهم حالًا من الضمير المجرور في عليكم، ويريد أن الذي يتلى لا يتقيد بحال انتفاء إحلالهم الصيد وهم حرم؛ بل هو يتلي عليهم في هذه الحال وفي غيرها». ونقل العلامة البيضاوي عن بعض أن النصب على الاستثناء، وذكر أن فيه

تعسفًا، وبينه مولانا شيخ الكل في الكل صبغة الله أفندي الحيدري -عليه الرحمة- بأنه لو كان استثناءً لكان إما من الضمير في (لكم) أو في ﴿أَوْفُواْ﴾ إذ لا جواز لاستثنائه من بهيمة الأنعام، وعلى الأول يجب أن يخص البهيمة بما عدا الأنعام مما يماثلها، أو تبقى على العموم لكن بشرط إدارة المماثل فقط في حيز الاستثناء، وأن يجعل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ من تتمة المستثنى بأن يكون حالًا عما استكن في محلي ليصح الاستثناء؛ إذ لا صحة له بدون هذين الاعتبارين، فسوق العبارة يقتضي أن يقال: وهم حرم؛ لأن الاستثناء أخرج المحلين من زمرة المخاطبين، واعتبار الالتفات هنا بعيد لكونه رافعًا فيما هو بمنزلة كلمة واحدة، وعلى الثاني يجب تخصيص العقود بالتكاليف الواردة في الحج، وتأويل الكلام الطلبي بما يلزمه من الخبر مع ما يلزمه من الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بالأجنبي، وكل ذلك تعسف أي تعسف انتهى، وكأنه رحمه الله تعالى لم يذكر احتمال كون الاستثناء من الاستثناء، مع أن القرطبي نقله عن البصريين؛ لأن ذلك فاسد- كما قاله القرطبي، وأبو حيان: لا متعسف إذ يلزم عليه إباحة الصيد في الحرم؛ لأن المستثنى من المحرم حلال، نعم ذكر أبو حيان أنه استثناء من بهيمة الأنعام على وجه عينه؛ وأنفه التكلف والتعسف فقد قال رحمه الله تعالى: «إنما عرض الإشكال في الآية حتى اضطرب الناس في تخريجها من كون رسم محلي بالياء فظنوا أنه اسم فاعل من أحل، وأنه مضاف إلى الصيد إضافة اسم الفاعل المتعدي إلى المفعول، وأنه جمع حذف منه النون للإضافة، وأصل غير محلين الصيد. والذي يزول به الإشكال ويتضح المعنى أن يجعل قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ من باب قولهم: حسان النساء، والمعنى النساء الحسان، وكذا هذا أصله غير الصيد المحل، والمحلّ صفة للصيد لا للناس (ولا للفاعل المحذوف) ووصف الصيد بأنه محل، إما بمعنى داخل في الحل كما تقول أحل الرجل أي دخل في الحل، وأحرم أي دخل في الحرم، أو بمعنى صار ذا حل أي حلالًا بتحليل الله تعالى، ومجيء أفعل على الوجهين المذكورين كثير في لسان العرب، فمن الأول: أعرق وأشأم وأيمن وأنجد وأتهم، ومن الثاني: أعشبت الأرض وأبقلت، وأغد البعير، وإذا تقرر أن الصيد يوصف بكونه محلًا باعتبار أحد الوجهين اتضح كونه استثناءً ثانيًا، ثم إن كان المراد ببهيمة الأنعام أنفسها فهو استثناء منقطع، أو الظباء ونحوها فمتصل على تفسير المحل بالذي يبلغ الحل في حال كونهم محرمين، فإن قلت: ما فائدة هذا الاستثناء بقيد بلوغ الحل والصيد الذي في الحرم لا يحل أيضًا؟ قلت: الصيد الذي في الحرم لا يحل للمحرم ولا لغير المحرم، والقصد بيان تحريم ما يختص تحريمه بالمحرم. فإن قلت:ما ذكرته

مـن هـذا التوجيـه الغريـب يعكـر عليـه رسـمه في المصحف بالياء والوقف عليه بها.

قلـت: قـد كتبـوا في المـصحف أشـياء تخـالف النطق نحو ﴿لَاَذْبَحَنَّـــهُ﴾ [النمل:١٢] بالألف، والوقف اتبعوا فيه الرسم» انتهى.

وتعقبـه السفاقسي بمثل ما قدمناه من حيث زيادة الياء، وفيها التباس المفرد بالجمع وهم يفرّون من زيادة أو نقصان في الرسم، فكيف يزيدون زيادة ينـشأ عنهـا لـبس؟ ومـن حيـث إضـافة الـصفة للموصوف وهو غير مقيس، وقال الحلبي: إن فيه خرقًا للإجماع فإنهم لم يعربوا ﴿غَـــيْرَ﴾ إلا حالًا، وإنـما اختلفـوا في صـاحبها، ثـم قـال السفاقـسي: ويمكن فيه تخريجان: أحدهما أن يكون ﴿غَـــيْرَ﴾ استثناءً منقطعًا، ومحلي جمع على بابه، والمراد به الناس الداخلون حل الصيد، أي لكن إن دخلتم حل الصيد فلا يجوز لكم الاصطياد والثاني: أن يكون متصلًا من بهيمة الأنعام وفي الكلام حذف مضاف، أي أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا صيد الداخلين حل الاصطياد وأنتم حرم فلا يحل، ويحتمل أن يكون على بابه من التحليل، ويكون الاستثناء متصلًا والمضاف محذوف، أي إلا صيد محلى الاصطياد وأنتم حرم، والمراد بالمحلين الفاعلون فعل من يعتقد التحليل فلا يحل، ويكون معناه أن صيد الحرم كالميتة لا يحل أكله مطلقًا، ويحتمل أن يكون حالًا من ضمير ﴿لَكُـــمْ﴾ وحذف المعطوف للدلالة عليه وهو كثير، وتقديره غير محلي الصيد محليه كما قال تعالى: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل:١٨] أي والبرد، وهو تخريج حسن. هذا ولا يخفى أن يد الله تعالى مع الجماعة، وأن ما ذكره غيرهم لا يكاد يسلم من الاعتراض(١١).

* * *

الهوامش:

(١) الرازي ٢٧٧/١١؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢٨٩/٢؛ النسفي في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٣/٣.

(٢) الآلوسي٥١/٦.

(٣) الطبري ٣٧/٦؛ البغوي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية.

(٤) الرازي ٢٧٧/١١؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ الطبري ٣٧/٦؛ النسفي في تفسير الآية؛ ابن كثير ٦/٣؛ البغوي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢٨٩/١؛ أبوالسعود ٣/٣؛ الآلوسي٥١/٦؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٥) الرازي٢٧٧/١١؛ الطبري ٣٧/٦؛ ابن كثير ٦/٣؛ البغوي في تفسير الآية؛ الآلوسي٥١/٦؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٦) أبوحيان في تفسير الآية؛ وراجع أيضا: الآلوسي في تفسير الآية.

(٧) الثعالبي تفيسر الآية.

(٨) البيضاوي ٢٨٩/٢.

(٩) الزمخشري تفسير الآية.

(١٠) أبو السعود ٤،٣.

(١١) أبوحيان ٤٩/٦.

* * *

مضار الإسراف

بقلم: الشيخ محمد الخضر حسين

تعظم الأمة، وترقى في سماء العزة والمنعة، بخصال من أكبرها أثرًا الاقتصاد في الإنفاق، والاقتصاد فضيلة بين رذيلتين: هما البخل، والإسراف.

وتقديره يختلف باختلاف أحوال الأشخاص من اليسار وقلة ما في اليد، وضابطه أن لا يتجاوز الإنسان في نحو مطعمه، وملبسه، ومسكنه، وأثاث منزله سيرةَ من يماثلونه في مقدار ما يملك، أو يكسب من المال، وهم يعيشون في مروءة، وسلامة من هموم الدين.

ولما كان الاقتصاد يقوم على عدم الإسراف في الترف اخترنا أن نجعل حديثنا في الإسراف وما يجرُّ إليه من عواقب وخيمة.

الإسراف يُفضي إلى الفاقة؛ ذلك أن المسرف يطلق يده في الإنفاق إرضاءً لشهواته؛ حتى يفقده ما عنده، وينزل إلى طبقة المقلِّين أو المعدمين، وكم من بيوت أسسها آباء مقتدرون، وعمَّروها بما يليق بها من المرافق والأمتعة، وأقاموا حولها وسائل للثروة، من نحو المزارع، أو المصانع، أو المتاجر، ثم صارت إلى أبنائهم من بعدهم وقد غلب عليهم حب الترف، فأطلقوا لشهواتهم العنان حتى أتلفوا وسائل الثروة، وتقوَّض بناء تلك البيوت، والتحق أولئك الخلف بطبقة البائسين الذين لايجدون ما ينفقون.

وإذا وقع الرجل في الفقر بعد اليسار، تجرَّع مرارة الهوان المصحوب بحسرات.

وكذلك الأمة تملك عزتها بقدر عمارة بيت مالها، قال أبو جعفر المنصور في وصيته للمهدي: «فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا».

ومن ثمَّ كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي يواجه الخليفة عبد الرحمن الناصر بالنهي عن الإسراف في المباني وزخرفتها، ويلقي بحضرته الخطب الزاجرة، حتى خاطبه يومًا بقوله:

يا باني الزهراء مستغرقًا
أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقًا
لو لم تكن زهرتها تذبل

ثم قال: الله اشهد فقد بلَّغت.

والإسراف في الترف ينبت في النفوس أخلاقًا مرذولة، من نحو الجبن والجور، وقلة الأمانة، والإمساك عن البذل في وجوه الخير.

أمَّا أن الإسراف في الترف يدعو إلى الجبن؛

فلأن شدة تعلق النفوس بالزينة واللذائذ من العيش يقوِّي حرصها على الحياة، ويحملها هذا الحرص على تجنب مواقع الحروب وإن كانت مواقف شرف، وذود عن النفس والعرض والمال.

شأن المحفوف بالزينة، وملاذ العيش أن تشتد كراهيته للموت، ولا يسابق إلى خوض غمار الحروب؛ لهذا ترى الرجل الذي يريد أن يجعل لشجاعة ممدوحة مزية زائدة يحدثك أنه يندفع إلى الحروب غير مبال بما تركه وراءه من لذة وزينة، كما قال الحطيئة العبسي:

إذا هم بالأعداء لم يثن عزمه

كعاب عليهاالؤلؤٌ وشنوفُ

حَصَانٌ لها في البيت زيٌّ وبهجة

ومشيٌ كما تمشي القطاة قَطوفُ[1]

وإذا كان شأن المترفين الفرار من الموت، فحق الأمة التي تريد النهوض من كبوتها أن تقلع عن الإسراف في الرفاهية، وتضع مكان الإسراف بذلًا في وجوه البر والإصلاح.

وأما أن الإسراف في الترف يسهل على النفوس ارتكاب الجور؛ فلأن المنغمس في الترف يحرص على اكتساب المال ليشبع شهواته، فلا يُبالي أن يأخذه من طرق غير مشروعة، فيمد يده إلى الاستيلاء على ما في يد غيره من طريق الرشوة، أو من طريق الغصب، إن كان ذا سلطان وقوة.

دُعِيَ العلامة محمد بن بشير إلى ولاية ا لقضاء بقرطبة، فاستشار بعض أصحابه في قبول الولاية، فسأله صاحبه عن أشياء؛ ليعلم مقدار قوته في العدل، ومما قاله له: كيف حبك للأكل الطيّب، واللباس اللين، والمركوب الفاره؟ قال: والله لا أبالي ما رددت به جوعي، وسترت به بدني، وحملت به رحلي، قال: اقبل الولاية، فلا بأس عليك.

وأما أن الإسراف في الترف يذهب بالأمانة؛ فلأن الغريق في الترف إنما همّه الوصول إلى زينة، أو لذة مطعم ونحوه، وكثيرًا ما تدفعه هذه الشهوات إلى أن يخون من ائتمنه، فيمد يده إلى المال الذي يؤتمن عليه، وينفقه في شهواته الطاغية.

وأما أن الإسراف في الترف يمسك الأيدي عن فعل الخير؛ فلأن من اعتاد الترف حتى أخذ بمجامع قلبه، كان أعظمُ قصدِه من جمع المال إنفاقَه فيما يلذه من مأكول، أو يتزين به من نحو ملبوس أو مفروش.

لذلك كان الغالبُ على المترفين المسرفين قبضَ أيديهم حيث يبسط غيرهم يده إسعادًا لذوي الحاجات من الفقراء والمنكوبين، أو إجابة لما تدعو إليه المروءة من مجاملات الإخوان، ومن هنا نستبين أن للإسراف سيئةً أخرى، هي قطع صلة التعاطف والتواد بين كثير من أفراد الأمة.

---

[1] هذان البيتان ضمن قصيدة مدح بها الحطيئة سعيد بن العاص، ومعنى قوله (وشنوف): جمع شنف، وهو القرط الأعلى، و(الحَصان): العفيفة، وقوله (كما القطاة...) يعني أنها قليلةالمشي، مقاربة الخطو، ليست كمن اعتاد ا لسير.
والمعنى أن الممدوح إذا أراد الغزو، فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله، ولم يلتفت إليها، مشيرًا إلى الزينة والترف لا يذهب برجوليته، ولا يقعد به عن حماية الشرف،والكرامة. (م)

وللإسراف في الترف أثرٌ كبير في إهمال النصيحة والدعوة إلى الحق؛ ذلك أن من اعتاد التقلب في الزينة، وألفت نفسه العيش الناعم يغلب عليه الحرص على هـذا الحال، فيتجنب المواقف التي يمكن أن تكون سببًا لفوات بعض النعيم، كسكوته عن كلمة حق بين يدي ذي جاه، أو سلطان يكره أن يسمع صوت الحق، ومن تَرك أن يواجه بكلمةِ حقٍّ ذا جاه، أو سلطان يخشى أن يحول بينه وبين رفاهيتـه – سهل عليه أن يترك الدعوة إلى الحق جملة.

وللإسراف في الترف أثر في الصحة؛ فقد دلت المشاهدات على أن المسرف في نحو المأكل والمشرب لا يتمتع بالصحة التي يتمتع بها المقتصدون فيما يأكلون وما يشربون.

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته حديثًا عن الأمراض، ونبّه على أنها تكثر في أهل الحضر والأمصار؛ لِخِصَب عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، ثم نبّه على أن تلك الأمراض تقل في أهل البادية؛ لقلة مأكولاتهم، وبساطة أغذيتهم.

وإذا كانت الصحة من متممات البطولة كان حقًا على الأفراد والجماعات أن يأخذوا في مآكلهم ومشاربهم بحكمة الاقتصاد؛ فلا فضل للأمة في أن تضع على موائدها ألوانًا من الأطعمة مختلفة، وإنما الفضل في أن يكون لها رجالٌ سليمة أبدانُهم، قوية عزائمُهم، مضيئة بصائرهم.

والإسراف في الترف يقل معه النبوغ في العلم؛ ذلك أن النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جانب، يضعف طموحها إلى اللذات العقلية؛ لأنها في لذة قد تشغلها أن تطلب لذة كلذة العلوم طلبًا يبلغ بها مرتبة العبقرية، ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تدرك إلا باحتمال مصاعب، واقتحام أخطار، والمسرف في الترف ضعيف العزيمة، لا يثبت أمام المكاره والشدائد.

هذا شأن الإسراف في الترف، ولكن التأريخ قد حدثنا عن أفراد نشؤوا في بيوت توفرت فيها وسائل الرفاهية، ولم يكونوا بحال المترفين المستضعفين؛ بل نشؤوا وقد عظم في نفوسهم الطموح إلى معالي الأمور، فاحتقروا ما يسمى لذاتٍ حسيّةً، وإن كانت طوْعَ أيمانهم وشمائلهم، وأقبلوا على العلم، أو على ضرب آخر من ضروب السيادة، فأدركوا فيه غاية قصوى، مثل عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولَّى الخلافة استطاع بما وهبه الله من الحكمة والرويَّة أن لا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزنًا، فعاش عيشة الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه، وتوفي وقد أبقى سيرة غراء، وذكرًا أطيب من ريح المسك.

ومثل أبي محمد بن حزم الذي نشأ في بيت وزارة بالأندلس، وتولَّى هو نفسه الوزارة، ثم نفض يده وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع.

ونحن إذا حذرنا من الإسراف في الترف لا نريد من الناس أن يكونوا على سنّة واحدة من

الإعـراض عـن الزينـة والمـلاذ، فقـد قـال – تعـالى-: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ ٱللَّهِ ٱلَّـتِيٓ أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ (الأعراف:٣٢).

وإنما نريد الدعوة إلى أخذ النفوس بالاقتصاد، وحمايتها من الحرص على الزينة واللذيذ من العيش، حتى لا تجعلها مظهر الفخار والمباهاة:

يفاخرنا بمأكول ولبس
وذلك فخر ذي حظ هزيل

وقد سلكت هداية القـرآن الكريم بالناس هذا الطريق القويم أعني طـريق الاقتصاد، فبعد أن أمر في آيـات كثـيرة بالإنفـاق في وجـوه الخـير نهـى عـن الإسـراف نهيًا بالغًا، فقال – تعالى-: ﴿وَلَا تَجْعَـلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِـكَ وَلَا تَبْـسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَـسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩).

وألحـق المـسرفين بقبيـل الـشياطين، فقـال – تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلـشَّيَٰطِينِ﴾ (الإسراء:٢٧).

وعدّهم في زمرة من يستحقون بغضه، فقال – تعالى-: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِـبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١).

ونفي محبة الله كناية عن بغضه إياهم.

وأثنى الله – تعالى – على المصطفين من عباده بفضيلة الاقتصاد، فقال: ﴿وَٱلَّذِيـنَ إِذَآ أَنفَقُـواْ لَـمْ يُـسْرِفُواْ وَلَـمْ يَقْـتُرُواْ وَكَانَ بَـيْنَ ذَٰلِـكَ قَوَامًـا﴾ (الفرقان:٦٧).

ونظر الشارع الحكيم إلى أن الإسراف يذهب بسعادة الفرد والأسرة، فشرع إقامة أولياء على أموال من لم يبلغوا سِن الرشد، أو من بلغوه وظهر عليهم السفه في تصرفاتهم، لينفق الأولياء عليهم باقتصاد، حتى يتبين رشدهم، قال –تعالى-: ﴿فَـإِنْ ءَانَـسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ (النساء:٦).

وإذا كـان المـسرف في إنفـاق مالـه ملومًـا أو مـذمومًا فـإن الـذي يقـترض مـال غـيره لينفقـه في الـشهوات أحـق بـالملام أو المذمـة، قـال الـشاعر الحكيم:

إذا رمت أن تستقرض المال من أخ
تعودت منه اليسر في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كيس صبرها
عليك وإنظارًا إلى ساعة اليسر
فإن أسعفت كنت الغنيَّ وإن أبت
فكلُّ منوعٍ بعدها واسع العذر

وقد نظر بعض الحكماء إلى ما يجره الدَّين من الذلـة والهمـوم، فكرهـه حتـى لمـن تحدثـه نفـسه أن يقترض مالًا؛ لينفقه في تثبيت سؤدده فقال:

أخذت الدَّين أدفع عن تلادي
وأخذُ الدَّين أهلك للتلاد

ولا حـرج في الـدَّين متـى دعـت إليـه حاجـة ملحة، وكان المقترض واثقًا بسماحة نفس المقرض مع العزم على قضاء الدين عند حلول أجله.

يُعَيِّرني بالدين قومي وإنما
تدينت في أشياء تُكْسِبُهُمْ حمدا

نحـــذر مـــن عواقـــب الإسراف ونـــدعو إلى الاقتصاد، ولا فضيلة في الاقتصاد إلا بعد أن يؤدي الرجل حق المال من نحو النفقات الواجبة عليه لأقاربه، والزكوات المفروضة للفقراء والمساكين، وبعد أن يبسط يده بالإعانة على بعض المصالح العامة، كإنشاء مساجد، أو مدارس، أو مستشفيات، أو ملاجئ، أو إعداد وسائل الاحتفاظ بسيادة الأمة، والدفاع عن حقوقها.

وليس غنى إلا غنى زين الفتى

عشية يعرى أو غداة ينيل

ورُمي محمد بن عمران بالبخل، فقال: «والله إني لا أجمد في الحق، ولا أذوب في الباطل».

ويقولون: «لا تصن كثيرًا عن حق، ولا تنفق قليلًا في الباطل».

وقيل لكريم بذل في وجوه البر مالًا كثيرًا: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

لا يضر أولي اليسار أن يقتصدوا في أطعمتهم وملابسهم متى كانوا يبذلون أموالهم فيما تكمل به المروءة، وتدعو إليه حقوق المجتمع؛ بل يزيدهم ذلك الاقتصاد مكرمة على مكرمة، قال قتيبة بن مسلم: أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع، وقال لي: قل له: في قومك دماء وجراح، وقد أحبوا أن تحضر المسجد فيمن يحضر؛ لتقوم بقسطك من الديات، قال: فأتيته وأبلغته، فقال: يا جارية، هات الغداء، فجاءت بأرغفة خُشْن، ففتتهن في نقيع من التمر، ثم صبَّ عليهن زيتًا، فأكل، وقال: الحمد لله، حنطة الأهواز، وتمر الفرات، وزيت الشام، ثم انطلق إلى المسجد، فصلى ركعتين، واجتمع من قومه الطالبون للدِّيات والمطلوبون، فأكثروا الكلام، فقال ضرار: إلى ما صار أمركم؟ قالوا: إلى كذا وكذا من الإبل، فقال: هي عليَّ كلها: ثم قام وانصرف إلى منزله.

فلو كان ضرار بن القعقاع من المسرفين في الترف لما تبرع بجميع ما لزم القوم من الديات، ولم يزد على أن تحمل قسطًا ضئيلًا من نحو ما يتحمله المسرفون في الترف وهم كارهون.

نشكو إطلاق الأيدي بإنفاق المال في غير جدوى، ومن أمثلة هذا الإسراف الممقوت مظاهر الأفراح والمآتم؛ فإنها تقام عندنا على غير حكمة وحسن تقدير، وتأكل من الأموال ما لا يجر إلى صاحبها حمدًا؛ بل شأنه أن يسوق إليه ذمًا أو إثمًا.

وإذا كان الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضار كثيرة، كان واجبًا على أولياء الأمور، ودعاة الإصلاح أن يتعاونوا على البذل في هذا السبيل؛ حتى يبتعد الناس عن الإسراف في مآكلهم، ومشاربهم، وملابسهم، ومراكبهم، ومساكنهم، وأمتعة بيوتهم، ويتحروا في جميع ذلك الطريقة المثلى.

قال ابن الخطيب في مقالته السياسية: «رَعِيَّتُك ودائع الله عندك» ثم قال: «ورِضْهم على الإنفاق بقدر الحال».

* * *

أبعاد هدي القرآن

بقلم: الدكتور إبراهيم بن حسن بن سالم

القرآن الكريم كتاب منزل من الله عزّ وجلّ الحكيم الخبير، على قلب محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ جاء يهدي الناس جميعًا إلى طريق الحق، ومنهج الخير، وإلى سبل الاستقامة، لافرق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون، ولا بين مستوى طبقة، ومستوى طبقة أخرى، ولا فرق بين عامة وخاصة.

جاء يهديهم جميعًا ويرشدهم، ويقودهم إلى طرق الفوز والنجاح ويدفعهم دفعًا محكما ميسورًا سهلًا إلى عقيدة تحرّر عقولهم من الأوهام والضلال، وتنقذهم من الوقوع في مهاوي خداع الباطل، ومن الارتماء في أسر الشهوات الآثمة.

الجدل بالحسنى

وفي مواجهته لهم، وفي ذكر الأدلة لإقناعهم أو إسكاتهم سلك بهم مسالك الجدل بالحسنى، فتارة يذكرهم بأن الإنسان لايزيد عن كونه شيئًا من أشياء الأرض، أنبت منها، ويعاد إليها، ومنها يخرج تارة أخرى، وبذلك يتضح لهم – إن أحسنوا الفهم والاعتبار – أن الإنسان ليس مقياسًا لكل شيء، وإنما هو شيء من أشياء الأرض التي هي بدورها ذرة في فضاء الكون الواسع الذي ليس في استطاعة العقل البشري الإحاطة به مهما تضافرت جهود أجيال البشرية في ميدان التجربة والمشاهدة، وفي ميدان التدبر والاستنتاج، وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ (نوح: ١٧-١٨). وبقوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ (طه:١٥).

وإلى قصورهم في مجال العلم والمعرفة يشير بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء:٨٥). وبقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وليس هذا احتقارًا للإنسان، أو استخفافًا بدوره في هذه الحياة، وإنما ذلك بيان لنسبة وجوده ومآله في هذا الكون الواسع في حدوده، والمترامي

في أبعـــاده لإزالـــة مـا يبـدو لـه مـن رأي يدفعـه الغرور، وما يمكن أن تحدثـه به نفسه المغرورة من أنه مقياس للوجود في جوهره وظاهره، وفي نقصه وكماله.

ومما يدل على أن القرآن عندما وضع الإنسان في مكانه، وأبان له حدوده، ليس ذلك احتقارًا له، ولا استخفافًا به، ما يثبته له من مكانة سامية، وقيمة عاليـة، مـن أن الله خـالق الكـون، ومبـدع الإنـسان، فضله على كثير من خلقه، وجعله خليفته في أرضه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَـنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَـضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّـنْ خَلَقْنَـا تَفْـضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠). ويقول: ﴿وَهُـوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُـمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْـضَكُمْ فَـوْقَ بَعْـضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُـوَكُمْ فِى مَـآ ءَاتَىٰكُـمْ﴾ (الأنعام:١٦٥). وتارة يبين لهم أن ما هم عليه من اتجاه ضدّ فطرتهم التي فطرهم الله عليها، هو نتيجة عنـاد ضـال لا يـستند إلى نباهـة عقـل ولا إلى يقظـة وجدان؛ بل إلى غباوة في الرؤية، وإلى انحراف عن الطريق السوي، وعن جادة التأمل السليم، فيقول منبهًا لهم ومثيرًا لانتباههم بأوضح الأدلة، وأيسر السبل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَـسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِـيمٌ ﴿٧٨﴾ قُـلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس:٧٧-٧٩).

ويقـول ناعيًا عليهم غفلتهم ومبينًا لهم يسر خلقهم عليه بدءًا وإعادة: ﴿مَّـا خَلْقُكُـمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (لقمان:٢٨).

وحينًا يذكـرهم بأن باطلهم هـذا ليس بدعًا في عـالم الإنـسان؛ بـل هـو كـلام معـاد، وسـلوك مكـرر، يدل على التواء في التفكـير وعلى تقليد لا يستند على علم بديهي واضح يفهمه كل الناس فهمًا غير قابل للشك ولا على علم نظري مقام على أقيسة عقلية سليمـة، وعلى براهين منطقية تؤدي إلى المعـرفـة في وضـوح وجـلاء ولا عـلى كتـاب سـماوي موضـح للحـق، وموصـل إلى اليقـين، يذكرهم بكل ذلك فيقول: ﴿وَمِـنَ ٱلنَّـاسِ مَـن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُـدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ (الحج:٨).

وحينا آخر ينبههم إلى أن ما يعتقدونه لا يخرج عـن كونـه ظنًّا أو افتراضًـا، ومتـى كـان الظـن يزيـل اليقـين، والافـتراض يمحـو الواقـع، ويبطـل الحـق، فيقول: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَـا ٱلدُّنْيَـا نَمُـوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُـم بِـذَٰلِكَ مِـنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:٢٤).

كما ينبههم في نفس الموضوع إلى ما هم مقبلون

عليه من هلاك، وسوء منقلب وأسوأ مصير نتيجة إصرارهم على الباطل، وحجب أبصارهم عن معاينة مواطن الأدلة الواضحة، والبراهين الصادقة، وبصائرهم عن رؤية الحق، فيخاطبهم ويصف لهم سوء منقلبهم بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ (الواقعة: ٤٧-٧٤).

فالقرآن الكريم ينعى على هؤلاء جميعًا عنادهم الآثم، وادعاءهم العلم والمعرفة وهم في غفلة عن مواطن الحق، ومعالم الحقيقة.

حسن الاعتبار والتبصّر

ومع ذلك يشفق عليهم من غرورهم وادعائهم فيأخذ بأيديهم ويقودهم إلى مشاهدة الواقع المادي الذي يؤمنون به أشد الإيمان؛ بل كل الإيمان، ويطلب منهم بذل جهد التأمل، وعمق النظر وحسن الاعتبار، وبذلك وحده – أن صاحبتهم الهداية – يمكنهم التخلص من أسر المادة إلى إدراك الحقيقة، للتمتع بأنوار وجمال الحق.

وفي هذا الإدراك تكمن المعرفة الحقة، والعلم اليقيني، ولا يتم ذلك إلا لمن أخلص الطلب واتبع الطريق المستقيم، طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو ليس ببعيد عنا؛ بل هو فينا ومن حولنا.

وستبقى أنوار الهداية الإلهية مشعة في داخلنا ومن حولنا تمد كل من استجاب لها واهتدى بها، بالهداية والمعرفة، فتخرجه من ظلمات الشك والحيرة إلى نور الحق واطمئنان اليقين، وتنقذه من خداع الضلال والباطل وتقوده إلى وضوح الرؤية ونصاعة الحق، مادام الوجود في عطائه، وما دام

الإنسان في معركة الشك واليقين وفي ساحة تدافع الحق والباطل، وصراع الكفر والإيمان.

فإلى الناس جميعًا يتجه القرآن الكريم يدعوهم ويأخذ بأيديهم إلى العقيدة الحنيفية السمحة، وإلى عمق التأمل وحسن الاعتبار، حتى يتغلب البعض منهم على ما في أنفسهم من شك وحيرة، ويتغلب البعض الآخر – إن أرادوا الاستفادة بما في الكون من حق وخير – على ما في أنفسهم من عناد وغرور، وما في سلوكهم من إثم وباطل.

قال الله تعالى – مبينًا لهم ولكافة الناس عبر أزمنتهم وعبر مراحل حياتهم المختلفة – مواطن الاعتبار في داخل أنفسهم، وفي آفاق الكون ليستمدوا منها ما يوصلهم إلى معرفة الحق وإلى الاطمئنان لبرد اليقين: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢٠-٢١) ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ (فصلت:٥٣).

التربية والتعليم

وهنا لابدّ من إشارة أكيدة أختم بها مقالي هذا، وهي أن المسلمين اليوم، لو اهتموا في مجال التربية والتعليم سواء منهم أصحاب القرار أو الأولياء، وحرصوا – مخلصين – لبناء أنفسهم وأجيال المستقبل منهم، على أسس تجعلهم متمسكين بهويتهم الإسلامية ذات المدد الإلهي، وذات التوجه الإنساني الرشيد، قادرين على الأخذ من غيرهم مما عنده من علم نافع، ومعرفة جادة ومفيدة من غير تقليد مشين وبدون ذوبان مخز يقود إلى الموت، وإلى الزوال من العائلة الإنسانية المعتزة بوجودها وبمشاركتها في بناء التقدم والرقي، وقادرين أيضًا على أن يعطوا لغيرهم ما امتازت به حضارتهم الإسلامية من أبعاد نهضت بهم وبالمجموعة البشرية بالأمس، وقادرة على أن تنهض بهم اليوم، في جميع المجالات وفي مختلف الميادين؛ لأن ما تملكه من عطاء لا ينال من جدواه الزمن ولا المكان ما دام الزمن زمنًا، والمكان مكانًا، في امتدادهما وفي تطورهما.

لو اهتم المسلمون اليوم وحرصوا – كما قلت – في بناء أنفسهم، وفي بناء أجيالهم الصاعدة على أساس ما جاء به الهدي القرآني الكريم والتوجيه النبوي الشريف، ولم يتركوا بناء تربية أجيالهم وتعليمهم – في أغلبه – بأيدي التوجه والمدد المادي البحت، وخاصة في الشعوب التي تخضع برامج ومناهج تعليمها للبرامج والمناهج الغربية وما شاكلها من البرامج والمناهج المقامة على الفلسفة المادية البحتة على اختلاف ألوانها ومدارسها في المظهر والشكل، وعلى اتحادها في المنبع والهدف، الذي هو تقديس المادة واعتبارها مقياسًا لكل شيء

ولذاتها بداية ونهاية وعبر مراحلها.

لم يتركوا تربية أجيالهم للتوجه المادي البحت؛ بل يجعلوا بناء تربيتهم وتعليمهم مقامًا على ا لهدي الإلهي كما وجههم إليه القرآن الكريم والسنة النبوية؛ إذ في ذلك – لهم ولغيرهم من الناس – الخير كل الخير، والتقدم كل التقدم، والرقي كل الرقي، والأمن كل الأمن، والسعادة كل السعادة.

شبه الماديين والرد عليها

وهنا سيرفع الماديون أصواتهم، كما هو شأنهم في جميع الأجيال، وفي كل الأزمنة والأمكنة، ويصيحون مرددين شعارهم الذي لم يملوا عن لوكَه بأفواههم، ومواجهة المؤمنين الجادين به، كلما صارحوهم القول، وأناروا أمامهم سبل الحق: هذا تعصب ديني ومحاربة للفلسفة وللتوجه الحضاري، ووأد للعقول المتوثبة للعلم والمعرفة، قبل أن تتمرن على الوثب، وإماتة لحرية التطلع التي تعطي للحياة معنى، وللوجود قيمة، غافلين أو متغافلين، عن أن ما يصيحون به، وما يرددونه من شعار هو التعصب في أجلى مظاهره، وفي أردى عطائه، حيث يريدون بذلك أن يفرضوا على أنفسهم وعلى الأجيال المعاصرة لهم، والآتية بعدهم، وأن يغرسوا في عقولهم ومواهبهم فلسفات مادية حائرة مترددة هي في جملتها وفي جوهرها عطاء بشري محدود الرؤية لا يمكنه أن يستوعب وحدات الزمن، ولا أن يحيط بدروب الأمكنة، ولا يمكن أصحابها المتعالين بعبقرياتهم، المتطاولين بأبعاد أنظارهم أن يعلموا الغيب أو يتيقنوا من إمداداته، وهم مع ذلك لم يتخلصوا تمامًا من سلطة الهوى، ومن غوائل الميول الذاتية، وقيود الشهوات الآسرة.

وبهذا فعطاؤهم لا يمكنه أن يكون حكمًا على مجريات الأحداث الغائبة عن مدركات البشر، من حيث البداية قبل خلقهم وعند خلقهم، ومن حيث النهاية الخاتمة، ومن حيث الأسباب الباطنة التي من وراء الأسباب الظاهرة والتي هي دوافع السير من البداية إلى النهاية، والتي هي في بداية المطاف وفي نهايته، وفيما بينهما بيد خالق الأسباب الذي ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٣).

وعطاء بشري في هذا المستوى، وفي هذه الأبعاد، وداخل هذه القيود، مهما كانت عبقرية أصحابه، وحدة عقولهم، وبعد أنظارهم، لا يليق بنا كمسلمين، أكرمهم الله برسالة أكرم الخلق وأفضل المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخاتمة لجميع الرسالات الإلهية وبكتابه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) المهيمن على سائر الكتب المنزلة، أن نتّخذ هذا العطاء المحدود، الغارق في تيه

الافتراضات.

ونترك العطاء المقدس الذي أمدّنا ويمدّنا به القرآن الكريم الذي وصفه بقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء:١٠٥) والسنة النبوية الشريفة المبينة له التي لا ينطق صاحبها ﷺ عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٤).

وبهذا فنحن في دعوتنا هذه لسنا متعصبين – كما يتهمنا الماديون ومن على شاكلتهم- ولا مقيدين للعلم والمعرفة على أنفسنا وناشئتنا ولا على غيرنا من الناس، وإنما نحن ندعو إلى حماية ناشئتنا وأجيال المستقبل، من الزيغ والضلال، ومن التيه في مجاهل الحيرة المحطّمة والإفك المدّمر، والضياع القاتل؛ لأن الفلسفة المادية بمذاهبها العديدة لم تحقق للناس أفرادًا أو جماعات، وشعوبًا وأممًا، في أي فترة من فتراتها الزمانية، وفي أي مرحلة من مراحل البشرية الأمن والطمأنينة، والاستقرار والرخاء، والسعادة والهناء.

وإني أتحدّى من يدّعي لها غير الجانب السلبي المثير للحيرة، والناشر للأوهام والافتراضات الضبابية في حياة الناس، أن يبرهن على صدق ما يدّعي نظريًّا في مجال العلم والمعرفة، وواقعيًّا في مراحل التأريخ، المبرّأ من الهوى، وفي سجل الأنباء الصادقة.

وبهذا فنحن لسنا ضدّ تدريس الفلسفة لناشئتنا، وإطلاعهم على ما فيها من اتجاهات وافتراضات واستنتاجات، ضمن تدريسهم وإطلاعهم على عطاء أصحاب العلم والمعرفة من أجناس البشر، ليعلموا ما في جميع ذلك من خير فيتبعوه ويعملوا به، وما فيه من شرّ فيجتنبوه ويعرضوا عنه. فلسنا – كما قلت – ضدّ تدريس الفلسفة لناشئتنا، وتخصيصها بحصة أو حصص ضمن برامج التربية والتعليم، وإنما ندعو إلى تدريسها إياهم إذا مادعت الضرورة التربوية والتعليمية لذلك – دراسة نقدية واعية، لا على أنها ميزان صحيح في جميع جوانبها ومعطياتها؛ بل على أنها عطاء بشري يمكن أن يكون صوابًا، ويمكن أن يكون خطأ.

دراسة الفلسفة دراسة نقدية

وفي هذا الإطار، وعندما تدعو الضرورة العلمية المعرفية إلى تدريس الفلسفة المادية لناشئتنا ينبغي أن ندرسها لهم – كما قلت – دراسة نقدية واعية، وذلك بأن نحيطهم بسياج من الصيانة والحماية، حتى لا يقعوا في غوائلها ومهاويها، وفي أطواقها المقيدة للحرية والآسرة بماديتها للعقول والمواهب.

وهذا لا يتم لنا كمسلمين إلا بأمرين:

الأول: أن تسند دراسة الفلسفة لناشئتنا عند تربيتهم وتعليمهم إلى مختصين يتصفون بالروح

العملية، وبالحسّ النقدي النزيه وبالمعرفة اليقينية، وبالنزاهــة في الحكــم، وبحــب الحــق، والتفــاني في الوصول إلى الحقيقة، لا إلى أناس مقلدين متعصبين للفلسفة وخاصــة الماديــة منهــا تعــصبًا مــذمومًا، وتقليدًا أعمى ساذجًا في أغلب الأحيان.

وأسـوأ مـن هـذا أن تـسند إلى أنـاس معـادين للأديـان، وخاصـة للـدين الإسـلامي، فهـؤلاء لا يدرسون الفلسفة لناشئتنا على أنها بحث عن الحقيقة لغاية العمل بالحق كما يدعي أقطابها؛ بل يدرسون لهم معرفتهم الخاطئة، وعلمهم الضحل، وهذا منهم ليس بالتدريس النافع الذي يصقل العقول، وينمي المواهب؛ بل هو إضرار بالناشئة، وتشويه للفلسفة.

الثاني: أن تقع دراستها، وتتم تحت مجهر الهدي القـرآني الـذي هـدانا ويهـدينا وكافـة النـاس، إلى أن عطـاء البـشر في مجـال العلـم والمعرفـة، وفي مجـال الأنظار والاستنتاج محدود قد يمثل الصواب إذا ما تبرأ من الهوى والشهوات الآثمة، وإذا لم يتبرّأ منها، فلا يمثل إلا الخطأ.

وعطاء بشري يكتنفه الخطأ ويحيط به لا يتخذه الراشـدون ميزانًـا صـحيحا مسلما، ولا حكمًا عـدلا موثوقًـا بـه في حكمـه؛ بـل عليهم أن يطلبـوا الميـزان الـصحيح المـسلم بـــه، والحكـم العـدل الموثـوق بحكمـه مـن الهـدي الإلهـي الـذي يمثـل الكـمال المطلق، المبرأ من الهوى ومن الخطأ، ومن كل نقص، والـذي لم يتخـل عـن هدايـة البـشر في أي زمـن مـن أزمنتهم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّـةٍ إِلَّا خَـلَا فِيهَـا نَـذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤).

وعلى المسلمين بصفة خاصة أن يطلبوا ذلك في مختلف مراحل حياتهم وفي جميع مستويات رشدهم من القرآن الكريم الذي لم يترك مرحلة من مراحل حيـاتهم إلا وأرشـدهم إلى مـا يحقـق لهـم خـصب العطاء، فلم يترك مجالا من مجالات العلم والمعرفة، إلا ووجههم إليه وأمرهم أن يحققوا فيه لأنفسهم الرقي والتقدم والفوز والنجاح.

فالقرآن الكريم، لهدايته التي لا تزول أنوارها، ولمـدده الـذي لا ينتهـي عطـاؤه، عـلى المـسلمين أن يغرسـوا في نفوسـهم، وفي أعـماق نفـوس ناشـئتهم، عنـد تـربيتهم وتعلـيمهم، أنـه هـو الحكـم ا لعـدل، وغيره من عطاء البشر هو المحكوم عليه به، وأنه هو الميزان الصحيح وغيره من عطاء كافة الناس هـو الموزون به، وذلك لأن القرآن جاء لهدايتهم جميعًا، فلـم يـترك شـيئًا إلا وأبانـه لهـم، ولم يـترك صراطًـا مستقيمًا إلا وهداهم إليه، فهو كما وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُـرْءَانَ يَهْـدِى لِلَّـتِى هِىَ أَقْـوَمُ﴾ (الإسراء:٩). وبقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّـكُلِّ شَىْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُـشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩).

* * *

اللــذة مع الحكمــة

بقلم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

سبرنا أغراض الإنسان، فوجدناه ظَمِئًا إلى مُلائِماتِ نفسه كيفما اتفق، ومتى اتفق، وأين اتفق، غير باحث عن ما يتبع ذلك من المضار، فأردنا أن نبين هنا حقيقة اللذة، ثم نبحثَ عن مواقعها، وننظر فيما إذا كانت لذةً دائمةً في هذا الكون الجثماني.

اضطربت آراء الناس – حتى الفلاسفة – في تشخيص معنى اللذة، وكلَّت أقلام الكتاب والشعراء دون ذلك، والذي نختار من بين كثرتها رأيان:

أولهما: يرى أن اللذة هي إدراك النفس ما يلائمها، وتراه حسنًا.

وثانيهما: أنها التخلص من آلام طبيعية، أو عارضة.

ونحن إن نقدنا الأقوال، ولم نذهب مع تشعبها لا يعترضنا شك في الحق أن اللذةَ إدراكُ النفس ما يلائمها على ما رأى أهلُ الرأي الأول، وأَنَّ مَنْ حصر اللذة في التخلص من الألم لم يستقرئْ في حَدِّها استقراءً تامًا كما يجب أن يكون التحديد للموجودات، إنما نظر إلى نحو النوم، والأكل، والشراب من كل لذة دعى إليها احتياجٌ فطري، وضيَّق في دائرتها حتى كاد أن يُخْرِج المعارفَ كلَّها عن اللذة.

نحن لا ننكر أن أكثر اللذات لا يفارقه الشعور بمبدأ ألم، ولو بالأقل ألم الشوق إلى نَيْل ما يلائم النفس، حتى ننكر على هذا القائل قوله كله.

ولكنَّا نعلم أن من اللذات ما ينساق إلى المرء بدون فكر سابق، وربما وقع منه موقعًا لا يقعه لو كان مترقبًا من قبل؛ فماذا ترون في هذا الإحساس؟!

انقسمت اللذات بحكم الطبيعة إلى ثلاثة أقسام: حسية، وعقلية، ومركَّبةٍ منهما.

والنظر في التقسيم إلى الداعي والحاصل جميعًا، فإن كان الداعي الحس – وهو الذي تَحْصُل به – فهي الحسية، وإن كان العقل فهي العقلية، وإن كان الداعي العقل – وتحصل بالحس – فهي المركبة.

أما الحسية فأمرها خطير، ومطالبها محدودة يسهل استيفاء ما تقتضيه في الإمكان، ومتى قضى الحس منها شيئًا كان الزائد عليه عنده ألمًا.

وأما العقلية فهي حركة الفكر في المعقولات التي تطمح إليها النفس، وشعوره بالحقائق التي يجد

عند الشعور بها مَسَرَّةً لا يَعْدِلُها عنده شيءٌ، وهذه يجدها العقل طوع[1] متى بالغ في البحث وجدها منطاعة لا تقف به عند حد.

أما إن أردتم التعب الشديد، والمشقة في السرور فاطلبوا قسمنا الثالث من أقسام اللذة، أعني ما تطلبه النفس، ويقتضيه البدن، تجدون خَرْطَ القتاد دونه سهلًا، وتفرضه في المحبة الحب العشقي؛ فإن الروح إن تعلقت به لقيت في سيرها من المكدرات ما يُمَرِّر حلاوة منالها منه، وإذا كانت مطالب الروح غير واقفة عند مدى فإن سلطانَ وهمِ المحبة يتسلط عليها، فيناجيها أن تطمع باتحاد الروحين، وأن تروم المقارنة الدائمة، والرِّضا الأبدي، وهكذا يغادرها تستهتر بأمانٍ لا يتناهى غرامها، ولا يبرد أوامها، ولكنها تجد طريق الاقتضاء هذا البدن القادر في مبدئه، العاجز في غايته، الذي تَسِمُه المداومة، وتعوقه الموانع، فماذا عساه حقق من مطالب هاتِه الروح، وكم ذا يمكنها أن تقضي من استخدامه؟ لا شك أنها سيكون لها مثلًا في هذه الحال قول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كبارًا

تعبت في مرادها الأجسام

فإذا نظرنا بعدَ هذا إلى المقدار الذي يمكن الإنسان تناوله من غير القسم الثاني نجد أن لا شيء من الملاذ الحسية بلذَّة حقيقية، وإن تموَّه على عقول جمهور الناس؛ فإن هاته الملاذَّ – على ما فيها من توقف على تسويغات الدين، والصحة، والعادة، والاحتياج إلى مُكْنة الفرص – هي واقفة عند غاية.

ثم ماذا ترى عند البلوغ إلى غايتها؟ ترى الهَيْضَة إن أَكَلتْ، والامتلاء إن شَرِبتْ، والندامة إن داعبتْ، والعجز إن استزادتْ، غير أن الذي يريد أن يغض عن هذا كله، ولا يعتبر من حال اللذات إلا أوقات اقتضائها، ويقول ما الإنسان إلَّا ابن ساعته، وما هو بمفكر في التي تليها – نقول له: انظر إليك وأنت تزعم أنك في لذاتك الحالية، وجرد عقلك مما تسلط عليه من الوهم – تجد نفسك في لذاتك كلها محتاجًا إلى معونة غيرك، وإن كنت عاجزًا عن تحضير أسباب لذاتك؛ فليتك تشعر أنك تفقد واحدًا، أو ينقبض لك آخر، وفي الأقل تفكر في انتهاء اللذَّة ومفارقتها، وكيف تجدك في حالك هاته ألا تجدك كما قال الشاعر:

فأبكي إن نأَوا شوقًا إليهم

وأبكي إن دنوا خوف الفراق[2]

حكي أن الناصر لدين الله ملك قرطبة كتب بخطه أنه لم يَصْفُ له من زمان حكمه على ذلك البلد الطيب في ذلك السلطان القاهر الذي دام خمسين سنة إلا ساعات تَلَفَّق من جميعها مقدارُ أربعة عشر

يومًا؛ لذلك قال الأسطوانيون[٣] من الفلاسفة: إن الدنيا دار شقاء، وبلاء.

دعْ عنك هذا، وولِّ وجهك شطر اللذات الروحية والكمالات العقلية تجد المرء متى التذَّ بشيء منها لا يقف عند منتهى؛ فهو كلُّ الزمان مبتهج بما يعلمه من العلوم، ويستفيده من الآداب.

وهذا حال الحكيم؛ فهو دائمًا ينظر نفسه؛ فيستفيد علومًا، ويلمح العالم، فيزداد تذكرة، وتُزْوى له الدنيا؛ فلا تهزه وهو مسرور بإقبالها، وتدبر عنه وهو مسرور بما يعلم من إخلافها، ربما نام ليلة وهو يرصد طلوع الصباح للرجوع إلى لذة التفكير التي قطعها عنه النوم، فإن حاول أمرًا، أو أتم له فلا تسل عن لذته منه، وإن لم يتم فقد حَصَّل – في الأقل – معرفةَ طريق لا يُهدى إليه، ومتى أَلَمَّ به ضررٌ من مصاب استهون به في فائدة التجربة، كما يرى العالم النحرير؛ فيسره مرآه؛ لما ينال من علمه، كذلك يرى الأحمق الجاهل؛ فيعلمه وبالأقل يأخذ الحكمة من حاله بطريق الحضارة[٤]؛ فرب خطأ جر إلى صواب.

إذن فالحكيم لا يتنكد أبدًا، وهو مسرور في كل وقت، سبب ذلك علمه بحقيقة كل شيء؛ لأنَّ هاته الدنيا – وإن كانت خضرة حلوة – فإنها تعقب تفاهةً، أو مرارة في فَم مجتنيها، ومن ثمَّ لا يوجد فيها سرورٌ متساوي الأطراف، وقد كادت مصالحها أن لا تسلم من ضرر تُخْلِفه.

وينبغي أن يكون هذا سبيل طائفة الأبيكوريين[٥] من الفلاسفة الذين يرون الدنيا كلها لذَّات؛ فإن رئيسهم لا يذهب عنه أن متاعبها كثيرة لغير الحكيم، ولكنه أراد اقتضاء لذاتها بقدر الاستطاعة.

جاءت شريعة الإسلام في آدابها على الحكمة الفطرية، فلذلك يكون حال المؤمن أشبه بحال الحكيم، ذلك أن الدين يأمره أن يأخذ من الدنيا ما يريد من الحلال، وأن لا يكون جازعًا عند فقدها.

وبهاته التربية التي أصلها التسليم للقدر فيها لا حيلة فيه فُقِدت المفاسد التي تنشأ عن الآلام في الأمم الأخرى من انتحار وجنون ونحوهما، قال – تعالى –: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧).

إذا كانت النفس ميَّالة إلى لذاتها في كل حال فالعاقل لا يسمح لنفسه باقتضاء لذتها الحسية، وربما وصل العقل إلى التفكر في حال اللذة ومآلها، فرأى أَنْ لابدَّ من انقطاعها، فقطعها قبل أن تقطعه، وهو مبدأ عظيم من الحكمة، قال فيه فيلسوف الشعراء أبو ا لعلاء المعري:

ضحكنا وكان الضحك منَّا سفاهة

وحقّ لِسُكَّان البسيطة أن يبكوا

وكـما تـرى مـن نفـسك اسـتنكافًا عـن بعـض اللـذات، وتـرى غـيرك يرغـب فيهـا؛ بـل تـرى مـن نفسك الفـرق في لـذاتك بـين حـالتي الـصبا والفتـوة مثلًا – كـذلك لا تـشك أنَّ الحكمـة إنْ أشرقـت عـلى قوم ربما نزعت كلَّ هَوَسٍ من قلوبهم، فرأوا الدنيا كلها سفاسف وغرورًا، كما ترى أنت اليوم الرقصَ مع الصبيان وتَلَقُّفَ الكرة جنونًا بعد أنْ كانا شُغُلَك الوحيدَ.

أُولئـك هـم الـسعداء الـذين اسـتوى عنـدهم الكـدر والطـرب، فعاشـوا وقلـوبهم ممتعـة بـإدراك الحقـائق الـذي وراءه للعاقـل مطلـب، وهـذا قـسم شريف فات أبا الطيب إذ يقول:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسَه
ويسومها طلب المحال فتطمع

وذكَّرني تشكي الناس من سوء معاملة الزمان عادة من عوائده، وهي انزواؤه لمن لا يقدر قدره، أو من لا ينتفع به، وتزلُّفه لمن عَدِم العقل والفضيلة، وأنـه لا وصـل إلى مقاصـده وأمانيـه مـن الحكـيم بـما سهلت الدنيا بين يديه لولا أن يخونه الطريق، فيضله عـن كنـه مقاصـده، وكـما تـرى الجـمادات تنـال بـدون ارتقاب ما تشيب دون نيله رؤوس الشباب، وترى الزجـاج ينـال مـن الثغـور مـا تتلظـى دونـه أربـاب الأسـاورة والقـصور، فـلا تتعجـب ممـن قـرب إلى الجمادية أن تكـون الـدنيا أسـوق إليـه، وأنهـا لا تـدين لمن يسخر منها، وإنما تُقَرِّب من تضحك عليه.

* * *

الهوامش:

(١) كأن فيه كلمة ساقطة، ولعلها: يديه. (م)

(٢) هـذه إشـارة إلى أبيـات للنـصيب بـن ربـاح يـصور فيهاحـال العاشق ويقول:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ
وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حـــين
مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم
ويبكي إن دنوا خوف الفراق (م)

(٣) هـم أصـحاب زينون الفيلسوف اليوناني الزاهـد المولـود سنة ٤٩٠ قبل المسيح، وهو الذي لما مات بأثينا، صاغوا له تاجًا من الـذهب، وضـعوه عـلى قـبره تنويهًـا بقـدره، وقـال بعـض خطبائهم في ذلك: «ليعلم أن أهل أثينا يكرمون أهل الفضل أحياء وأمواتًا».
أما كلمة أسطوانيين، فالتحقيق أنها مأخوذة من اليونانية.

(٤) أي بطريـق استحـضار قـبح صـنيع ذلـك الأحمـق، وتجنـب فعله.(م)

(٥) هـم أصـحاب أبيكـور الفيلسوف اليوناني المولـود سنة ٣٤١ قبل المسيح ومات سنة ٢٧٠ وهو الذي كان مبدؤه أن الدنيا خلقت للسرور، وكـان قـد اتخـذ لتلاميـذه مدرسـة في بستان كبير، وكـان يـسلك بهـم مـسلك الرياضـة والنزهـة والأكـل الطيـب البـسيط الذي لا يخلف أكدارًا، ويرى أن الرجل يجب عليه اغتنام اللذات بقدر استطاعته، ويجب أن يتكدر في الدنيا.
ولا شك أن هذا لا يتم بغير ما بيَّنا من التوطين النفسي؛ فإن كل غرض أبيكور تحصيل مع إهمال هذا، فهو يطلب ما لا يسمح به الزمان.

العلامة الطبيب علي بن حزم القَرْشي

بقلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

شيخُ الأطباء في عصره الإمامُ ابنُ النفيس كاشفُ (الدورة الدموية الصغرى) في البدن، والفقيهُ الأصوليُّ المتفننُ، جاء في ترجمته في «روضات الجنات» للخوانساري[1]، نقلًا عن كتاب «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصَّفَدي، ما أقطِفُ منه ما يلي:

«الإمام الفاضل الحكيم العلامة علاءُ الدين أبو الحسن عليُّ بن أبي حَزْم القَرْشِي – نسبة إلى بلدة قَرْش من بلاد ما وراء النهر – المولود بدمشق في حدود سنة ٦١٠، والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٧، رحمه الله تعالى. نشأ بدمشق، واشتغل بها في الطب على مهذَّبِ الدين الدَّخْوَار[2].

كان علاءُ الدين إمامًا أوحَدَ في علم الطب، لا يُضاهَى في ذلك ولا يُدانَى استحضارًا ولا استنباطًا، واشتغل به على كِبَر، وله في ا لطب التصانيفُ الفائقة، والتواليفُ الرائقة، صنَّف كتاب «الشامل» في الطب، تَدلُّ فهرستُه على أنه يكون في ثلاث مئة سِفر، كما ذكر بعضُ أصحابه، وبيَّض منها ثمانين سِفرًا. وألَّف أيضًا كتابَ «المهذَّب في الكُحل»، و«شَرْحَ القانون لابن سينا» في عِدَّة أسفار، وغيرَ ذلك في الطب[3].

قال جماعة من كبار الأطباء المعاصرين في الهند: «وشَرْحُهُ هذا على كتاب «القانون» من أفضل الشروح وأوفاها في استكمال مقاصده واستكناه فرائده، دون إخلال بجزءٍ من أجزاء الكتاب.

وله أيضًا: «الموجز في الطب» كخلاصة لقانون ابن سينا، وقد ظَلَّ هذا المختصر داخلًا في المقررات الدراسية في جميع الدول الإسلامية والبلدان الشرقية. ولا يزالُ يُدرسُ إلى يومنا هذا في مدارس الطب في الهند وباكستان[4].

واشتهر هذا الكتاب شهرةً كبيرة، وطار صيتُه في الآفاق، حتى اهتم به الشراح، فكُتِبَتْ له عِدَّة شروح، وأصبحت جزءًا من المواد الدراسية في الطب، في معظم المقررات ا لدراسية الطبية. ومن أشهر هذه الشروح: ١- كتاب المغني، أو السَّدِيدي، لسَدِيد الدين الكازَرُوني، المتوفى سنة ٧٧٩.

٢- والنَّفِيسي، لبرهان الدين نَفِيس بن عِوَض الكِرْماني، المتوفى سنة ٨٥٠. ٣- والأَقْصُرَائي، لجمال الدين الأَقْصُرَائي. ٤- وشرح البلبلي، لشهاب الدين البلبلي»[٥].

وله معرفة بالمنطق، وصنَّف فيه مختصرًا، وشَرَحَ كتاب «الهداية» لابن سينا في المنطق، وصنَّف في أصول ا لفقه، والفقه، والعربية، والحديث، وعلم البيان، وغيرِ ذلك، وشَرَح من أوَّل «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي إلى (باب السهو) شرحًا حسنًا، وكان قد تولَّى تدريس الفقه في المدرسة المحمدية بالقاهرة.

قال الصلاح الصَّفَدِي: وأخبرني الشيخ نجمُ الدين الصَّفَدي رحمه الله تعالى أنَّ الشيخ بهاء الدين ابن النحاس، كان يقول: لا أرضى بكلامِ أحدٍ في القاهرة في النحو غيرِ كلام علاء الدين بن النفيس، أو كما قال.

وقد رأيتُ له كتابًا صغيرًا عارَضَ به «رسالة حَيّ بن يَقْظَان» لابن سِينا، ووَصَفه بـ«كتابِ فاضِل ابنِ ناطق»، وانتصر فيه لمذهب الإسلام وآرائه في النبوات والشرائع والبعثِ الجِسماني وخراب العالم. ولَعَمْري لقد أبدع فيه، ودَلَّ ذلك على قدرته وصحةِ ذهنه وتمكُّنِه في العلوم العقلية. انتهى.

وجاء في (التقديم) لكتابه «الموجز في الطب» قول أعضاء لجنة إحياء التراث، التي قدَّمت للكتاب[٦] ما يلي:

«وقد وُفِّق هذا الشيخ العلامة الفقيه الطبيب ابن النفيس من خلال تجاربه وممارسته للعلاج الطبي، إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، المعروفة بالدورة الدموية الرئوية، مخالفًا في ذلك آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء وبخاصة ابن سينا، وذلك عند وصفهم لوظيفة القلب والرئتين،وشَرْحِهم كيفية أداء هذه الأعضاء لوظيفتها داخلَ ا لجسم الإنساني.

وقد عُني بشرح هذا الاكتشاف العلمي الكبير في كتابه «شرح تشريح ابن سينا»، فقدَّم بذلك للطب والعلاج أجلَّ الخدمات، وخَدَم الحضارة الإنسانية خدمات لا تُنسَى، حيث قدَّم لها أعظم اكتشاف وصل إليه الأطباء المسلمون في التشريح». انتهى.

وقال الإمام برهان الدين إبراهيم الرشيدي: وكان العلاء بن النفيس، إذا أراد التصنيف، تُوضَعُ له الأقلامُ مَبْرِيَة، ويُديرُ وجهَهُ إلى الحائط، ويأخُذُ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتُبُ مِثْلَ السَّيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلمُ وحَفِي، رَمَى به وتناوَلَ غيرَه، لئلا يَضيعَ عليه الزمانُ في بَرْي القلم. وكان يكتُبُ – إذا صنف – من صدره، من غير مراجعةٍ حالةَ التصنيف.

وقـال الـسَّديدُ الـدمياطي الحكـيم بالقـاهرة، وكـان من تلاميذه: اجتَمَع ليلةً هو والقاضي جمال الدين بن واصل، وأنا نائمٌ عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخِرة شَرَعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم، والشيخُ علاء الدين في كل ذلك لا يَبحَثُ برياضةٍ ولا انزعاج – أي كان هادئًا طبيعيًا جدًا –، وأما القاضي جمال الدين فإنه كان ينزعجُ، ويعلو صوتُه، وتحمَرُّ عيناه، وتنتفخُ عُرُوقُ رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أَسفَر الصبح.

فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين، أمَّا نحن فعندنا مسائلُ ونُكَتٌ وقواعد، وأمَّا أنت فعندك خزائنُ علوم.

وقال آخر: دخل الشيخ علاء الدين مرَّةً إلى الحَمَّام الذي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مَسْلَخ الحَمَّام – موضع نزع الثياب وخَلْعِها –، واستدعى بدواة وقلم وورق،وأَخَذ في تصنيف مقالة في النَّبْض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمَّام وكمَّل تغسيله.

وكـان شـيخًا طُـوالًا أَسِـيلَ الخـدين نحيفًـا ذا مُروءة، وكان لا يحجب نَفْسه عن الإفادة ليلًا ولا نهارًا، وكان يحضر مجلسَه في داره جماعة من الأمراء، ومهذَّبُ الدين بن أبي حَلَيْقَة رئيسُ الأطباء، وشرفُ الدين بن الصغير، وأكابرُ الأطباء، ويجلس الناس على طبقاتهم، وأمين الدولة ابن القُفّ وعليه وعلى عماد الدين النابلسي تَخَرَّج الأطباء بمصر والقاهرة.

وكان قد ابتنى دارًا بالقاهرة، وفَرَشها بالرخام حتى إيوانَها.

وفي عِلَّتِهِ التي تُوفي فيها، أشار عليه بعض أصدقائه الأطباء، بتناول شيء من الخمر، إذ كانت عِلَّتُه تُناسِبُ أن يَتداوى بها على ما زعموا، فأبى أن يتناول شيئًا من ذلك، وقال: لا أَلقَى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر. ولم يكن متزوجًا، ووَقَف دارَه هذه وكتبَه، وأموالَه، على البِيمارستان المنصوري(٧).

وبالجملة كان إمامًا عظيمًا، وكان كثيرٌ من الأفاضل يقول: «هو ابنُ سينا الثاني». انتهى.

قال عبد الفتاح: وكان مع هذا الفضل العظيم والنبوغ الباهر في علم الطب وغيره يتواضَعُ، فيصف نفسَهُ في إجازاتِهِ للمستفيدين والمتخرِّجين به باسم (المتطبِّب)، كما تراه في نموذج من خطه الجميل المصوَّر في ترجمته في كتاب «الأعلام» للزركلي. وهو كاشفُ (الدورة الدموية) في البدن منذ أكثر من سبعة قرون، ذلك الكشفَ العظيمَ الهائلَ في عالم الطب رحمه الله تعالى.

وفي هذا التوقيع (المتطبب) من (إمام الطب) في عصره: درسٌ بليغ لهؤلاء المرضى المصابين

بانتفاخ مرض الألقاب في عصرنا، الذين أنعم الله عليهم بمحو الأمية، فادعوا الإمامة والتفوق على السالفين والخالفين!

* * *

الهوامش:

(١) ٥: ٢٩٠-٢٩٣.

(٢) هو الشيخ الإمام الصدر الكبير مهذَّبُ الدين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقيُّ المولدِ والوفاة، المعروف بالدَّخْوَار، شيخ الأطباء ورئيسهم بدمشق، وكان أوحَدَ عصره، وفريد دهره في الطب كما وصفه تلميذه الطبيب ابنُ أبي أُصَيْبِعَة.

ولد سنة ٥٦٥، وتوفي سنة ٦٢٨ عن ٦٣ سنة رحمه الله تعالى، كما في ترجمته في غير كتاب، ومنها كتاب تلميذه ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وقد ترجم له فيه ترجمة حافلة جدًا في ٣: ٣٩٠-٤٠٢ من طبعة دار الثقافة ببيروت سنة ١٤٠١-١٩٨١.

ومنها: سِيَرُ أعلام النبلاء للذهبي ٢٢: ٣١٦؛ والدارس في تأريخ المدارس للنُّعَيمي ٢: ١٢٧؛ والقلائد الجوهرية في تأريخ الصالحية لابن طولون ١: ٣٣١، وغيرها من كتب التراجم.

ووقع في كتاب الدكتور الطبيب الفاضل سلمان قطاية المسمى «الطبيب العربي ابن النفيس» في ص ٣٨ خطأ عجيب جدًا في تأريخ ولادة الدَّخوار، ووفاته، ففيه تأريخ الولادة، والوفاة بالتأريخين الأخير، وصوابه (١٣٢٤م).

فوقع الخطأ في تأريخ ولادته، وتأريخ وفاته، وفي مدة عمره، فهو قد عاش ٦٣ سنة كما أسلفتُ، وعلى مقتضى هذا التأريخ يكون قد عاش ١١١ سنة! وما أدري كيف وقع للدكتور الفاضل هذا الخطأ؟!

وقال الدكتور في ص ٣٨، في ترجمته للدَّخْوار: (... ولم يتزوج). وأنا راجعتُ ترجمة الدَّخْوَار في غير كتاب، ومنها الكتب السابقة الذكر، لأدخله في (العلماء العزاب)، فما رأيت أحدًا ممن ترجم له قال فيه: (لم يتزوج)، وإنما قال تلميذه ابن أبي أصيبعة: (لم يخلف ولدًا)، وهكذا قال الحافظ الذهبي، وفرقٌ كبير بين عبارة (لم يتزوج) وعبارة (لم يخلف ولدًا)، كما لا يخفى.

(٣) انظر أسماء مؤلفاته وتصانيفه، ومواضعَ ما وُجِدَ منها، في ص ١٣٨-١٤٨ من كتاب «ابن النفيس طليعة ا لعهد العلمي في الطب» تأليف الدكتور بول غليونجي، طبعته وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية، في مطبعة حكومة الكويت بدون تأريخ. وفي هذا الكتاب تجدُ الحديثَ العلمي عن كشف ابن النفيس للدورة الدموية، وكذا في كتاب (الطبيب العربي ابن النفيس) للدكتور سلمان قطاية، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤، وهو كتاب لطيف ماتع، وفي مجلة (الأمة) الصادرة من دولة قطر، في العدد ٣٧ الصادر في المحرَّم سنة ١٤٠٤ مقال بعنوان «من تأريخ الطب عند العرب: ابنُ النفيس» لأحمد المكينسي.

(٤) وقد طُبع هذا الكتاب النفيس طبعة محققة فائقة ممتازة مشكولًا مضبوطًا، طبعته وزارة الأوقاف المصرية بمطابع الأهرام التجارية سنة ١٤٠٦=١٩٨٦، في مجلد واحد في ٣٥٠ صفحة بفهارسه العامة. وفي أوله ترجمة حافلة ماتعة لابن النفيس، استفدتُ منها في ترجمتي له هنا.

(٥) انتهى من مقدمة كتاب «قاموس القانون في الطب لابن سينا» تأليف خمسة من كبار الأطباء المشهورين المسلمين في الهند، ص (ز)، المطبوع في حيدر آباد ا لدَّكن بالهند بمطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٨٧.

(٦) في ص ٥-٦.

(٧) لفظ (بيمارستان) مركب من كلمتين فارسيتين: (بيمار) بمعنى مريض، و(ستان) بمعنى محل أو دار، وبتعبير عربي عنه يقال: دار المرضى، ويقال الآن: المستشفى.

* * *

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

نتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبِعْه؟ قال: وهل يشتريه الكبار ويقرؤونه؟ قلت: وإذا لم يفعلوا فإن في وسعي أن أوعز إلى نفرٍ من أصدقائي بأن يحملوا في الصحف على الكتاب حملةً عنيفةً، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب، ومنافٍ لكل ما درجت عليه الإنسانية، وهذا وحده كفيل بترويجه. قال: وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس؟ قلت: لا أستطيع أن أقول: نعم أو لا، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس إلى طلب هذا الكتاب الفريد في بابه».

وأصحاب هذه الطبيعة الشاذة يتفنون في لفت الأنظار واستهواء القلوب فيأتون تصرفات أغرب من الخيال، وخاصةً إذا لم يكلف ذلك مالًا وجهدًا يذكر، ليجعلوا لأنفسهم مكانةً في العيون وإن فقدهم منطق مقنع، أو فهم عميق للقضية، والنظرُ فيما يجلب عليهم ذلك من العار والشنار، تهافتًا على كسب المجد والصيت، ولو بالدخول من أنتن الأبواب وأقبحها وأحطها، وبإثارة اهتمام الناس بالمحدث الغريب من الأفعال والأقوال.

وجاء في كتاب معجم ألفاظ العقيدة (٢١٦): «ذكر بعض أصحاب التواريخ أن الزعفراني- الذي ينسب إليه فرقة من فرق النجارية على مذهب الجهم بن صفوان- أراد أن يشهر نفسه في الآفاق، فاكترى رجلا على أن يخرج إلى مكة يسبه، ويلعنه في مواسم مكة، ليشتهر ذكره عند حجيج الآفاق». ورغم ما تتصف به هذه الفعلة من الشناعة والغرابة في آنٍ واحدٍ إلا أن الزعفراني قد سجَّل اسمه في التأريخ أيقونةً للخُرق والسفه والبلاهة.

وقال الشوكاني في البدر الطالع (١/ ٦٥): «إن هذه قاعدة مطردة في كلّ عالم يتبحّر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنة، فإنه لا بدّ أن يستنكره المقصّرون، و يقع له معهم محنةٌ بعد محنة، ثمّ يكون أمره الأعلى، وقوله الأوْلى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدقٍ في الآخرين، ويكون لعلمه حظ لايكون لغيره ..».

وصنفٌ من الناس يدعي لنفسه أصناف العلم على قدر جهله بها، ويتكلف للإبانة عنها على قدر غباوته عنها، ثم يحسب أنه قد حصل له فيما يدعيه حد لايفل، وقياس لاينكسر، وغرب لاينثني، وجواب لاينقطع، كأنه لم يسمع بقول الشاعر:

خلافًا علينا من فَيالة رأيه
كما قيل قبل اليوم «خالف فتذكرا»

ولم يسمع بقول الأول:

تَرَاهُ معدا للْخلاف كَأَنَّهُ
برد على أهل الصَّوَاب مُوكل

ولا بقول الآخر:

لَنا صاحب مولعٌ بالخلاف
كثيرُ المراء قليل الصواب
أَلَجَّ لجاجًا مِن الخُنْفُسَاء
وَأَزْهى إذا مَا مَشَى مِنْ غُرَاب

(رسالة التربيع والتدوير، ص ٨).

وكتب طه حسين نقدًا لاذعًا في الأديب الكبير (المنفلوطي) فقال: «أيها الكاتب المجيد، أسعد الله صباحك، وأحسن مغداك ومراحك، وقوم المزور من شأنك والمعوج من لسانك، وألهمك الصواب في الإعراب، والإحسان في البيان، فما أعلمك في كل ذلك إلا دعيا بحثت عن معناك فلم أجدك إلا غثا، وعن لفظك فلم أجده إلا رثا، وعن أسلوبك فلم ألفه إلا مبتذلا، وعن صيتك فلم أجده إلامنتحلا، وعن مقرظيك فإذا هم بين ظالم ومظلوم، ولائم وملوم، فسألت الله أن يثأر منك العرب». وبعد ذلك بأربعين سنة سأله صحفي عن سر هذه الحملة الشنيعة على المنفلوطي فأجابه وهو يبتسم: «كنت شابا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف».

خَالِفْ تُذْكَــر

«خالف تذكر» مثل عربي سائر مسير الشمس والقمر، وأول من قاله - كما يقول المفضل بن سلمة (مجمع الأمثال للميداني ١/٢٣٢)- هو الحطيئة الشاعر الهجاء، «وكان ورد الكوفة فلقي رجلا فقال: دلني على أفتى المصر نائلا، قال: عليك بعتيبة بن النهاس العجلي، فمضى نحو داره. فصادفه، فقال: أنت عتيبة؟ قال: لا، قال: فأنت عتاب؟ قال: لا، قال: إن اسمك لشبيه بذلك، قال: أنا عتيبة فمن أنت؟ قال: أنا جرول، قال: ومن جرول؟ قال: أبو مليكة، قال: والله ما ازددت إلا عمى، قال: أنا الحطيئة، قال: مرحبًا بك، قال الحطيئة: فحدثني عن أشعر الناس من هو؟ قال: أنت، قال الحطيئة: خالف تذكر؛ بل أشعر مني الذي يقول:

وَمن يَجْعَل المعروفَ من دون عرضه ... يَفِرْهُ وَمن لَا يتقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

ومَنْ يَكُ ذَا فَضْـلٍ فَيَبْخَل بِفَضْلِـــهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ

قال: صدقت، فما حاجتك؟ قال: ثيابك هذه؛ فإنها قد أعجبتني، وكان عليه مطرف خز و جبة خز وعمامة خز. فدعا بثياب فلبسها ودفع ثيابه إليه، ثم قال له: ما حاجتك أيضا؟ قال: ميرة أهلي من حب، وتمر وكسوة، فدعا عونًا له فأمره أن يميرهم، وأن يكسو أهله، فقال الحطيئة: العود أحمد، ثم خرج من عنده وهو يقول:

سُئلتَ فلمْ تبخَل ولم تعطِ طائلًا ... فسيَّانِ لا ذمٌّ عليكَ ولا حمدُ»

تطفح الساحة في هذه الأيام بما يصدق عليه هذا المثل: (خالف تعرف)، فتجد الناس يكادون يتفقون على رأي أو فكرة لايختلف عليها اثنان في مجال من المجالات العلمية والأدبية، فيأتي رجل من هواة الصعود الصاروخي إلى قمم السمعة والإثارة، والمتابعة الإعلامية ليعارض هذا الرأي السائد أو الفكرة السائدة؛ لا لأنه عثر على معلومة نادرة وغير شائعة، وكنز دفين في أعماق الأرض وأغوارها، وتوصل إلى ما لم يتوصل إليه العباقرة الذين حلبوا الدهر بأشطره، وجربوا حلوه ومره، وضحوا بحياتهم، واسترخصوا كل غال ونفيس، واستسهلوا كل صعب في سبيله، ولا له فيما يبدو- والعلم عند الله – إلا المعارضة لأجل المعارضة أو لمجرد لفت الانتباه، واستهواء قلوب الناس، والاستحواذ على نفوسهم، وهو في الواقع يشكل عقدة الدونية والشعور بالنقص.

وربما يكون الرجل خامل الذكر خامد الصيت، وهو على أشد من الجمر لتأكيد أستاذيته ودقته وبراعته في زعمه، فيسلك الطريق الأخصر والأسرع إليه، دون أن يتحمل المشاق، ويقرح المآقي، ويصل ليله نهاره، فالطريق الأخصر إليه هو الشذوذ عن المألوف والخروج على السائد حتى يشار إليه بالبنان، و هَب أن العمل قد لايلقى عنايةً تذكر من ذوي العقول والألباب، فلا أقل من أن يشتريه الأغمار لما فطر عليه الإنسان من حب الاستطلاع على كل غريب وجديد، يقول إبراهيم عبد القادر المازني في صندوق الدنيا (ص٢٠): «قال: وهل نطبع الكتاب ونبيعه؟ قلت: ولم

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري